ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ١٢ ، السنـــــة : ٤٩

ذوالحجة ١٤٤٦هـ ، يونيــو ٢٠٢٥م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- من إيحاءات خطبة حجة الوداع — التحرير — ٣

كلمة العدد

- الحج يهدم ما كان قبله — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩

دراسات إسلامية

- تنوع الصلاة: المدرسة الحضاريّة الأولى — الأستاذ أحمد بسام ساعي — ١٥
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند: مقدمة الكتاب حكيم الإسلام المقرئ الشيخ محمد طيب رحمه الله — ٢٢
- هجر النوم والراحة والدعة .... — الشيخ عبد الفتاح أبو غدة — ٣٦
- قضية خلق القرآن بين صالح بن المنصور الهاشمي ... — الدكتور عبد الرحمن عميرة — ٤٣
- الخشية من مظاهر الجبن — الأستاذ عبد الله عبد الغني خياط — ٤٧
- الرقي في الخلق الحسن — فضيلة الشيخ عبد المطلب صلاح — ٥٠

أنباء الجامعة

- قاضٍ من قضاة منطقة «أيته» بولاية أترابراديش يزور الجامعة — التحرير — ٥٣

إشراقة

- الناس على دين ملوكهم — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

من إيحاءات خطبة حجة الوداع

الناظر في خطبة حجة الوداع التي ألقاها النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على جمعٍ حاشدٍ من المسلمين القادمين من شتى أنحاء الجزيرة العربية يجد – بوضوح – دلالات وإيحاءات إلى مبادئ هامة تشكل العمود الفقري للشريعة الإسلامية، وللسلم والأمن في المجتمع البشري. ومن أهم هذه المبادئ التوصيةُ بالنساء وإحسان المعاملة معهن، بعد أن لقيت المرأة في جاهلية العرب – و لازالت تلقى في جاهلية القرن الحاضر – ما لقيت من الازدراء والاستهانة بها، والحرمان وسوء المعاملة من أهلها وذويها وغيرهم، ومن سلبِ حقها في المواريث، وفي التصرف في مالها، فقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وهو في الواقع تأكيد لما أمر الله تعالى الرجل به من المعاشرة بالمعروف، فقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩]، فأمر الله تعالى الرجال بأن يحسنوا صحبة النساء، ثم أدبهم تأديبًا حيث جعل المعاشرة بالمعروف فريضةً عليهم حتى في حالة كراهية الزوج لزوجته ما أمكنهم ذلك، وذلك كي تستمر المؤسسة الزوجية موثوقةً بالعرى الوثقى دائمةً، وكيلا ينجرف الرجل وراء انفعاله الأول، و لايعرِّض هذه المؤسسة البشرية الكبرى لنزوة من نزوات العواطف المتحولة، ولايَدَعها فريسةً لسفاهة الميول الطائرة هنا وهنا، فتعود العلاقة الزوجية ريشةً في مهب الريح، وتنفصم عقدتها لأول نزوة، وتنفك لأول خاطر؛ فإن الإسلام ينظر إلى المؤسسة الزوجية على أنها سكن وأمن و سلام، قال تعالى في قصة آدم عليه السلام: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ [الأعراف:١٨٩]، أي ليميل إليها ويطمئن باله بها؛ فالجنس إلى جنسه أميل، و خاصةً إذا كان بعضًا، وبضعةً منه، كما يسكن ويطمئن المرء إلى ولده، ويحبه محبةَ نفسه.

ويرى الإسلام إلى العلاقة الزوجية على أنها مودة ورحمة وأنس، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١]، أي جعل بينكم التواد والتراحم والتحاب بعد أن لم تكن بينكم قرابة أو رحم. وجعل الله تعالى هذه الصلة الزوجية «سكنًا للنفس والعصب، وراحةً للجسم والقلب، و استقرارًا للحياة والمعاش، وأنسًا للأرواح والضمائر، واطمئنانًا للرجل والمرأة على السواء». فـ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس:٣٦].

[التحرير]

(تحريرًا في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الأربعاء: ٢٤/شوال ١٤٤٦ = ٢٣/أبريل٢٠٢٥م)

الحج يهدم ما كان قبله

الإسلام دين الله الخالد الباقي ما بقي الليل والنهار، وبني على خمس: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان». و وردت أحاديث كثيرة في فضله وبيان أهميته ومكانته، منها ما رواه الإمام مسلم [برقم:١٩٢] عن ابن شماسة المهري، قال: حضرنا عمرو بن العاص، وهو في سياقة الموت، يبكي طويلًا، و حول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه، أما بشرك رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بكذا ؟ أما بشرك رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، إني قد كنت على أطباق ثلاث، لقد رأيتني وما أحد أشد بغضًا لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مني، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه، فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «ما لك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟» وما كان أحد أحب إلي من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة، ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شنًا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي».

يدل الحديث النبوي على ثلاثة أمور:

١- أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟

٢- وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟

٣- وأن الحج يهدم ما كان قبله؟.

وهذا الأمر الأخير هو موضوع بحثنا ودراستنا، ولكن ما علاقة الأمرين الأولين بهذا الأمر الثالث الأخير الذي دل على فضل الحج دون وجوبه؟. فالجواب أنهما مما يعين على إثبات وجوب الحج؛ فإن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قرن بيان الحج بأمرين واجبين، فأفاد وجوبه أيضًا – كما ذهب إليه

بعض الأصوليين-، فإن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان لايجمع إلا بين الأمور المتناسبة، إلا أن يدل دليل على عدم الاشتراك في الحكم، فلايكون الاقتران حجةً على ذلك، وحتى لو لم نقلْ بأن الاقتران في الذكر دليل على الاشتراك – كما ذهب إليه غيرهم- فلا يسع إنكار أهميته وفضله وإن لم يكن على وجه الافتراض، فلا أقل أنه يعين على ذلك. والوجوب ثابت بأدلة أخرى. فالحج واجب بهذا الاقتران ظاهرًا، وبأدلة أخرى نصًا.

دل الأمر الأخير من الحديث على انهدام المعاصي والذنوب بالحج. وهل يهدم الحج الذنوب والحقوق الواجبة كذلك؟ فالجواب أن كلمة «ما» في الحديث وإن كانت عامةً، إلا أن العموم غير مراد هنا، فليست الذنوب والمعاصي والحقوق الواجبة كلها تسقط بأداء الحج، فإن القتل في سبيل الله تعالى وله مكانة ودرجة أسمى في الشريعة لايسقط الدين. روى مسلم في صحيحه [برقم:١٨٨٥] عن عبد الله بن أبي قتادة، عن أبي قتادة، أنه سمعه، يحدث عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أنه قام فيهم فذكر لهم أن القتال في سبيل الله، والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت في سبيل الله، تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «نعم، إن قتلت في سبيل الله، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر». ثم قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «كيف قلت؟» قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدين، فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك».

وقال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في شرح هذا الحديث في كتابه «المسالك في شرح موطإ مالك (٨٧/٥): قال بعضُ علمائنا: معنى ذلك أنّ حقوق الآدميِّين لا تكفِّرها الحسنات، وهذا وجهٌ محتملٌ، وقد كان -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- في أوَل الإسلام يمتنع من الصَّلاة على من مات وعليه دَينٌ لم يترك له قضاءً، وظاهرُ ذلك أنّه إنّما قال ذلك؛ لِئَلَّا يسرع النَّاس إلى أكل أموال النَّاس بغير حاجةٍ ولا رِفْقٍ في إِنْفَاقٍ، ثم يموتُ من ماتَ منهم ولايترك قضاءً فيذهب بأموال النَّاس، ثمَّ إنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- لمَّا فَتح اللهُ عليه بالمالِ قال :«أَنَا أَوْلَى بِالمؤمِنِينَ من أنْفُسِهِم، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أوْ ضياعًا فعليّ وإليّ». و يحتمل أن يكون النّبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- قال لهذا السائل: «إلَّا الدَّين» إنّما كان يمتنع من الصَّلاةِ على من ترك كلاً أو دَيْنًا لا وفاءَ له، فيكون على عمومه. ويحتمل أن يكون قاله بعد ذلك، ويكون معنى قوله: «إلَّا الدَّين» لمن أَخَذَهُ يريد إتلاف أموال النَّاس، ويأخذه من غير وجهه، ويُنْفِقُهُ في سَرَفٍ أو معصيةٍ، فهذا حُكمُهُ باقٍ في المنعِ. ويحتمل قوله: «إلَّا الدَّين» فيمن كان عليه دَيْنٌ وهو جاحدٌ له وقد ترك وفاءً له، فهذا ليس على الإمام أن يؤدِّيه، وإثمه عليه. ويحتمل أن يكون الذي أخذه يريد إتلافه، لقوله عليه السّلام: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ

النَّاسِ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتلَفَهُ اللهُ في النَّارِ». واللهُ أعلمُ».

والحق أن الأعمال الصالحة والتوبة تكفر السيئات والصغائر من الذنوب، وأما الحقوق الواجبة فلا تكفرها الأعمال الصالحة، ولابد من أدائها وإيفائها لأصحابها، ولابد من الفرق بين الذنوب وبين الحقوق الواجبة. فالأعمال الصالحة والتوبة تكفر الذنوب لا الحقوق الواجبة. فمثلًا رجل تاب اليوم؛ فإنها تكفر الذنوب، ولكن يجب عليه قضاء الصلوات الفائتة، و قِس عليه الصيام والدين، فحقوق الله وحقوق العباد لاتسقط عنه. فالإسلام يهدم ما كان قبله من الصغائر و الكبائر، وأما الهجرة والحج فلا يسقط بهما إلا الصغائر.

وعلى كل دل الحديث على أن الحج يهدم ما سبقه من الذنوب، وأما أنه يهدم ما يلحقه من الذنوب أيضًا فلا دلالة له عليه. فعلى الحاج أن يتخذ جانب الحذر في شعب حياته كلها؛ بل عليه أن يلازم جانب الحذر والحيطة أكثر مما كان عليه قبل الحج. ومن هنا كان العلامة محمد قاسم النانوتوي رحمه الله يقول: الحجر الأسود محك فلا يلامسه أحد إلا تبينت حالته الحقيقية، فإن كان مفطورًا على الصلاح غلبت عليه الأعمال الصالحة، وإن كان غير ذلك، وإنما تظاهر بالصلاح والخير، غلبت عليه الأعمال السيئة بعد الحج، فهذا أمر فظيع، ودواؤه أن يبالغ الحاج في الدعاء لإصلاح حاله خلال الحج، ويعنى كل العناية بالأعمال بعده.

فمن أدركه الحج فليبادر إلى أدائه قبل أن يحول دونه أمر. روى ابن ماجه [٢٨٨٣] عن ابن عباس، عن الفضل - أو أحدهما عن الآخر- قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «من أراد الحج فليتعجل، فإنه قد يمرض المريض، وتضل الضالة، وتعرض الحاجة».

ومن الناس من يؤجل الحج بعد أن وجب عليه ويسوف ويماطل حتى يأتيه أجله، فيقول الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المنافقون:١٠-١١].

تجد الرجل يستطيع إلى الحج سبيلًا، وقد توفر له الزاد والراحلة وما يستلزمه رحلة الحج، ثم يؤجل خامس خمسة من أركان الإسلام، ويتعلل بأن الطريق غير آمن، أو بأن الصحة لاتسمح له بالسفر، وغير ذلك من العلل الواهية، في حين لايتأخر عن شيء من الأعمال الدنيوية و وظائفها وشؤونها.

وقال أهل العلم: من علامات قبول الحج وكونه مبرورًا أن ترغب النفس في العودة إلى الحج مرة أخرى، فليتحر الحاج بعد عودته منه أن ترغب نفسه فيه مرات ومرات، وذلك بأن يتذكر ما لهذه الشعيرة الإسلامية النبيلة من الأجر والمثوبة في الآخرة. و ليغض الطرف عما لاقاه من المتاعب والمشقات في الطريق أو خلال أدائه لها؛ فإنها لاتعدل جناح بعوض بالنظر إلى ما جعله الله تعالى

لـه مـن الـدرجات العاليـة في الجنـة بفـضل الحـج ومناسكه. ثم إنه من المشاهد أن الحاج يوسع له في رزقه، فلينظر كم يتحمل المرء من المشاق في سبيل التوسع في رزقه والزيادة فيه.

وقد ورد الوعيد الشديد لمن وجد سعةً فلم يحج، وصحَّ عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «مَن أطاق الحجَّ فلم يحجَّ، فسواء عليه مات يهوديًّا أو نصرانيًّا»، قال ابن كثير- رحمه الله -: وهذا إسناد صحيح إلى عمر، وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري قال: قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «لقد هممتُ أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار إلى كلِّ مَن عنده جِدَة - غِنى- فلم يحجَّ، فيضربوا عليه الجزية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين» (تفسير ابن كثير٢٨٥).

وقال الشيخ المفتي محمد شفيع العثماني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧] في (معارف القرآن ص:٨٨٢): «يدخل فيها حتمًا من ينكر وجوب الحج صراحةً، فلا يرى الحج فريضةً، ولايخفى خروجه عن نطاق الإسلام وكفره، فإن قوله: (وَمَنْ كَفَرَ) يصدق عليه صراحةً، ومن اعتقد بوجوبه، ثم لايحج وهو يجد سعةً وقدرةً عليه، فهو أيضًا منكر من جهة، وإطلاق قوله: (وَمَنْ كَفَرَ) عليه للتهديد والتأكيد، فإنه في عمل يشبه عمل الكفرة، كما أن الكافر والمنكر لايحج، فهذا مثله. ومن هنا قال الفقهاء: «في هذه الآية من الفقرة وعيد شديد لمن لم يحج وهو يجد سعةً، فهم أشبه بالكفر بهذا السلوك، العياذ بالله».

وإن نظرةً واعيةً إلى الحج ومناسكه تبين لنا بوضوح أن الحج تعبير عن حب الله تعالى والولع به لأقصى الحدود، ويتجلى في كل ركن من أركانه ومنسك من مناسكه وسنة من سننه، وواجب من واجباته الحب والفناء في سبيل المحبوب، فتجد الحاج أشعب أغبر لايبالي بنفسه وماله، و عياله، وثيابه، وزينته، ورائحته، فيتيه في هذه الصحراء القاحلة حافيًا عاري الرأس، هائمًا على وجهه، يقبل جدران هذه البنية السوداء، وعلى لسانه: «لبيكَ اللّٰهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمدَ والنِّعمةَ لك والمُلك لا شَرِيكَ لك»... ولبيك لبيك، لبيك وسعديك، والخيرُ بيديك، والرَّغباءُ إليك والعمل، ويطوف بالبيت فحينًا يرمل، وحينًا يمشي، ثم يقوم إلى مقام إبراهيم، ويجعله بينه وبين البيت فيصلي ركعتين ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]، ثم يخرج من الباب إلى الصفا، حتى إذا دنا من الصفا قرأ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] فيبدأ بما بدأ الله به، فيبدأ بالصفا فيرقى عليه، حتى رأى البيت، فكبر الله وهلّله وحمده، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ثم ينزل إلى المروة فيمشي، حتى إذا انصبت

قدماه، رمل في بطن الوادي، حتى إذا صعدتا مشى، حتى أتى المروة، فيفعل على المروة، كما فعل على الصفا.

فالحاج أول خطواته في هذه السبيل هو الإقبال إلى ما يرضي به ربه، وترك ما سوى الله تعالى. وما سوى الله تعالى عبارة عن كل ما يرغب فيه النفس ويشتهيه، وأعظم ما يتعلق به قلب المرء بين رغبات النفس وشهواتها هي الطعام والشراب والالتذاذ بالنساء. فمادام قلب المرء عالقًا بها غير منصرف عنها هيهات أن يتمكن الحب الحقيقي لله تعالى منه، وينزل في سويدائه. فالحج كله عبارة عن أنواع من الترك والإعراض، فيترك الملذات، ويترك الزينة والرياش، ويترك اللباس العادي، ويترك الجاه والمنصب، ويترك ماله ومتاعه، ويغادر أهله وعياله وبلاده.

ومن أجل ذلك لم تكن أمة من الأمم إلا كان فيها أصل الحج. يقول الشاه ولي الله الدهلوي رحمه الله (حجة الله البالغة ١/١٥٨): «وأصل الحج موجود في كل أمة، لا بد لهم من موضع يتبركون به لما رأوا من ظهور آيات الله فيه، ومن قرابين وهيآت مأثورة عن أسلافهم يلتزمونها بها؛ لأنها تذكر المقربين وما كانوا فيه. وأحق ما يحج إليه بيت الله، فيه آيات بينات، بناه إبراهيم صلوات الله عليه المشهود له بالخير على ألسنة أكثر الأمم بأمر الله و وحيه بعد أن كانت الأرض قفرًا وعرًا؛ إذ ليس غيره محجوجًا إلا وفيه إشراك أو اختراع ما لا أصل له. ومن باب الطهارة النفسانية الحلول بموضع لم يزل الصالحون يعظمونه، ويحلون فيه، ويعمرونه بذكر الله، فإن ذلك يجلب تعلق همم الملائكة، ويعطف عليه دعوة الملأ الأعلى الكلية لأهل الخير، فإذا حل به غلب ألوانهم على نفسه، وقد شاهدت ذلك رأي عين. ومن باب ذكر الله تعالى رؤية شعائر الله وتعظيمها، فإنها إذا رُئِيَتْ ذكر الله كما يذكر الملزوم اللازام لا سيما عند التزام هيآت تعظيمه وقيود وحدود تنبه النفس تنبيهًا عظيمًا. وربما يشتاق الإنسان إلى ربه أشد شوق، فيحتاج إلى شيء يقضي به شوقه فلا يجد إلا الحج. وكما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة؛ ليتميز الناصح من الغاش، والمنقاد من المتمرد، وليرتفع الصيت، وتعلو الكلمة، ويتعارف أهلها فيما بينهم، فكذلك الملة تحتاج إلى حج ليتميز الموفق من المنافق، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجًا، ولير بعضهم بعضًا، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده؛ إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والترائي. وإذا جعل الحج رسمًا مشهورًا نفع من غوائل الرسوم، ولا شيء مثله في تذكر الحالة التي كان فيها أئمة الملة والتحضيض على الأخذ بها. ولما كان الحج سفرًا شائعًا وعملًا شاقًا لايتم إلا بجهد الأنفس كان مباشرته خالصةً لله مكفرًا للخطايا هادمًا لما قبله بمنزلة الإيمان».

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

* * *

من ظلال التفسير

(من سورة الأعراف)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠

سبقت قصة آدم عليه السلام في أول السورة، وأول الأنبياء المشاهير من أولى العزم بعده هو نوح عليه السلام، الذي أرسل إلى أهل الأرض بإزاء المشركين، وإن قلنا: إن بعثته كانت إلى قومه خاصةً بالنظر إلى شريعته الخاصة، ولكن نظرًا إلى المبادئ الأساسية التي يشترك فيها تعليمات وتوجيهات الأنبياء كلهم، يسعنا أن نقول: كل بشر مخاطَب من كل نبي، فمثلًا التوحيد والإيمان بالمعاد مما اتفقت عليه توجيهات الأنبياء كلهم، فتكذيب مثل هذه الخصال تكذيب للأنبياء كلهم في الواقع. فدعا نوح عليه السلام إلى التوحيد وغيره دعوةً عامةً. قالوا: كان بعد آدم عليه السلام عشرة قرون كانت بنو آدم كلهم فيها على كلمة التوحيد، وبدء عبادة الأصنام -كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما - أنه مات بعض الصالحين فيهم، وهم ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، ثم صوَّرهم الناس بعد مدة ليتذكروا به ما كانوا عليه من الأحوال والعبادات ونحوها، ثم صنعوا بعد مدة تماثيل لهم، ثم أتى عليهم زمن فأخذوا يعبدونهم، وهؤلاء الأصنام سميت بأسماء هؤلاء الصالحين. وانتشرت عبادة الأصنام، فبعث الله تعالى نوحًا عليه السلام. فدعا قومه قبل الطوفان إلى التوحيد والتقوى ألف سنة إلا خمسين عامًا، وأنذرهم بعذاب الدنيا والآخرة، فضللوه وجهَّلوه، ولم يصغوا إليه بآذانهم، حتى أحدق بهم عذاب الطوفان، ولم ينجُ كافر من الكفرة من عذاب الله تعالى على الأرض كما دعا نوح عليه السلام:

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

(رَبِّ لَا تَـذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِـنَ الْكَافِـرِيْنَ دَيَّـارًا) [نوح:٢٦]. وساق البستاني في دائرة المعارف أقوال المحققين الأوربيين عن الطوفان وعمومه.

قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

أي لم أضِل إطلاقًا، وإنما أنتم الضالون، حيث لم تعرفوا رسول الله، الذي يقدم إليكم رسالة الله تعالى بأفصح أسلوب، ويريد الخير لكم، وينصح لكم، وجاء بالعلوم والهداية من الله تعالى، مما تجهلونه.

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿٦٣﴾

أي لاعجب أن اختار الله تعالى واحدًا منكم ليبلغ رسالته، ومادام الله تعالى قد اصطفى آدم عليه السلام بين خلقه لمنصب الخلافة لاستعداد خاص فيه، فكيف لايسعه أن يصطفي من بني آدم بعض الكاملين استعدادًا منهم لمنصب النبوة والرسالة ليستفيدوا من الله تعالى مباشرةً، ثم ينبهوا الناس على عاقبة أمرهم، فيطلع عليها الناس وينجوا بأنفسهم من الشر، ويستحقوا رحمة الله تعالى وكرمه.

فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

أي لم يدركوا الحق من الباطل، ولا النفع من الضرر، وثبتوا في عمه على الطغيان و التكذيب والبغي. ولم يمسكوا عن عبادة الأصنام وغيرها، فنجينا حفنةً من المؤمنين، الذين ركبوا السفينة مع نوح عليه السلام، وأغرقنا غيرهم من المكذبين، فما من بشر في الدنيا إلا وهو من ذرية أهل السفينة أولئك؛ بل من ذرية نوح عليه السلام.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾

وعاد هو من ذرية إرم حفيد نوح عليه السلام. ونسبت قوم عاد إليه، وكانوا في الأحقاف من اليمن، ومنهم هود عليه السلام، فكان أخوهم في النسب والوطن.

فائدة:

وانتشرت فيهم عبادة الأصنام، واتخذوا أصنامًا مختلفةً أسندوا إليهم الرزق والإمطار والشفاء وقضاء مختلف الحاجات والمطالب. وكانوا يعبدونها، فمنعهم هود عليه السلام منها، وحذرهم من عقوبة هذه الجريمة الشنيعة.

قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦

أي معاذ الله، هل أنت سفيه حتى هجرت ما كان عليه الآباء وانحرفت عن طريق القوم، و أنت كذاب أيضًا؛ لأنك تنسب أقوالك إلى الله تعالى وتحذرهم عذابه من غير مبرر.

قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨

أي ليس شيء مما أقول من السفه والحمق، ولكني أقوم بواجبي تجاه منصب الرسالة التي منحنيها الله تعالى. ومن سفهكم أن تسفِّهوا ناصحكم الحق الذي هو محل الثقة لأمانته وديانته من ذي قبلُ، فلاتضرون به إلا أنفسكم.

أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩

أي أنشأ لكم حكومات في الدنيا بعد قوم نوح عليه السلام، وأسكنكم مساكنهم، ولعل التذكير بهذه المنة غرضه التحذير من أن يصيروا ما صار إليهم أولئك القوم لعبادة الأصنام وتكذيب الرسول ﷺ.

فائدة:

اشتهر هؤلاء القوم بقوتهم الجسدية، و ضخامتهم.

فائدة:

تذكروا النعم المذكورة وغيرها من آلاء الله تعالى الكثيرة، واشكروا له وأطيعوه، لا أن تطغوا على المنعم الحقيقي.

قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠

أي ائتنا بالعذاب الذي تهددنا به إن كنت من الصادقين.

قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١

أي حيث بلغ طغيانكم ووقاحتكم هذا المبلغ، فاعلموا أن عذاب الله تعالى وغضبه كأن قد وقعا، ولن يتأخرا.

قولهم: إن الصنم الفلاني يرزق، والصنم الفلاني يمطر الماء من السماء، والصنم الفلاني يرزق الولد، وعلى هذا القياس، إنما هي أسماء محضة، لا

تمت إلى الحقيقة بسبب، وأنى تتصف الأحجار بصفات الله تعالى؟ ثم أنتم وراء هؤلاء الآلهة اسما- التي لاتتمتع بألوهيتها بدليل من عقل أو نقل؛ بل يردها الأدلة العقلية والنقلية كلها - تجادلونني في دعوى التوحيد. وحيث طفحت كأس جهلكم وشقائكم وعنادكم، فانتظروا حتى يحكم الله تعالى بيننا وبينكم، وأنا من المنتظرين.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

أي استمر عليه طوفان من العاصفة سبع ليال وثمانية أيام متتالية، فمزق الكفار كلهم كل ممزق، وصرعهم وأهلكهم. هذا مصير عاد الأولى. وأما عاد الثانية - وهم ثمود، وهم بطن منهم-فسيأتي ذكرهم لاحقًا.

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

أي الدليل الذي تطالبون به قد وصل إليكم. وتعهد قوم صالح عليه السلام أنهم يؤمنون به إن أخرج من الصخرة ناقة عشراء، فأخرجها الله تعالى بدعاء صالح عليه السلام، ثم قيل لهم: قد أتينا بالمعجزة التي كنتم تسألونها فما بالكم لاتؤمنون؟

فائدة:

أي هذه الناقة آية على قدرة الله تعالى وصدقي. أخرجها الله تعالى بدعاء على وجه غير معتاد، فارعوا حقها، بأن لاتمنعوها من رعي المرعى المباح في أرض الله وشرب الماء في نوبتها. فلا تمسوا آية الله تعالى هذه – التي أخرجها لكم بطلبكم - بسوء، وإلا فلا خير لكم.

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

أي لاتفسدوا في الأرض بنكران الجميل والشرك والكفر.

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾

وكان الزعماء المستكبرون المعاندون من القوم يستهزئون بضعاف المؤمنين، ويقولون لهم: ألم

يعرف قيادات القوم وأنتم عرفتم أن صالحًا مرسل من ربه؟ فرد عليهم المسلمون بأن المعرفة قد حصلت لكم أيضًا، وأما نحن فقد قبلناه بأعماق القلب وآمنا به. فانضجر المستكبرون بهذا الجواب وقالوا: لانؤمن ما آمنتم به، وهل يشكل إيمان حفنة من الضعفاء أمثالكم فلاحًا كبيرًا؟

فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾

فائدة:

ذكروا أن الناقة بلغت من ضخامة الجثة وكبرها مبلغًا عظيمًا، فكانت إذا دخلت مرعى من المراعي فرت غيرها من الأنعام خوفًا منها، وإذا شربت في نوبتها من بئر لم يبق فيها ماء، فكما كان خلقها بصورة غير عادية، كذلك كانت لوازم وآثار الحياة أيضًا غير عادية، فاتفقوا على قتل الناقة غيظًا وغضبًا، وعقرها قدار الأشقى، ثم سعوا لقتل صالح عليه السلام أيضًا، فتركوا أحكام الله تعالى الخاصة بصالح والناقة وراء ظهورهم.

فائدة:

إنما ينطلق لسان المرء بمثل هذه الكلمات حين يأمن غضب الله تعالى وقهره كل الأمان، وصارت ثمود إلى ما صارت إليه عاد الأولى، فاستحقت عذاب الله تعالى كما سيأتي ذكره لاحقًا.

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾

جاء في آية أخرى هلاكهم بصيحة، فربما زلزلوا من تحتهم، ونزلت عليهم الصاعقة من فوقهم.

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

وبعد ما هلك قوم ثمود انطلق صالح إلى مكة المكرمة أو إلى الشام، ونظر إلى جثث الهالكين وهو يغادر ديارهم فخاطبهم، إما كما خاطب الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قتلى بدر، وإما على سبيل التحسر وافتراض الخطاب معهم، كما يخاطب الشعراء الديار و الأطلال. وقيل: خاطبهم قبل أن يهلكوا، فلم يكن ترتيب الوقائع في الذكر مرعيًا، والحاصل أن هذا الخطاب لإسماع غيره صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه لابد أن يستمعوا إلى الثقة الناصح لهم، وهذا مصير كل من لم يصغِ بأذنه إلى من ينصح له.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

كان لوط عليه السلام ابن أخي إبراهيم خليل الله عليه السلام، هاجر معه من العراق إلى الشام، و

أرسله الله تعالى إلى سدوم وما حولها من القرى ليصلحهم ويمنعهم عما كانوا عليه من القبائح والفواحش المناوئة للفطرة البشرية، ولم يكونوا مجرد متلبسين بها؛ بل كانوا اخترعوها. ولم يعرف الناس قبلهم هذه القبيحة، وأول من دلهم الشيطان على هذه القبيحة هم أهل سدوم، ومنهم تعدَّتْ إلى غيرهم.

ونبه لوط عليه السلام على هذه الفعلة الملعونة الشنيعة، وحاول استئصال هذه القاذورة من الدنيا، وأحرِ بالبكاء على الجرأة الشنيعة من الذين دونوا التوراة، حيث نسبوا إلى هذا النبي الطاهر المعصوم الفاحشة والقاذورة التي جاء لمحوها من العالم. ونسبوا إليه فعلات قذرة شنيعة يقشعر منها جلد من كان له حياء، (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ اَفْوَاهِهِمْ اِنْ يَّقُوْلُوْنَ اِلَّا كَذِبًا)[الكهف:٥].

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

لايقتصر الأمر على ارتكابكم لإثم من الآثام؛ بل اقتراف هذه الفعلة المناوئة للفطرة دليل على أنكم تجاوزتم حدود البشرية.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾

أي آخر ما قالوه: إنكم تعتبروننا جميعًا أنجاسًا، وتتطهرون، فما بال المتطهرين يعايشون الأنجاس؟ فأخرجوهم من قريتكم، حتى تحطموا هذا الحاجز الدائم. وما كان لهم أن يخرجوا المسلمين، فقد أخرج الله تعالى لوطًا وأهله بعز وعافية سالمين من قراهم، وأنزل عليها العذاب، الذي سيأتي ذكره لاحقًا. ولا يتخلف عن لوط من أهله إلا زوجته، وهلكت مع المعذبين؛ لأنها كانت متواطئةً معهم. وكان إذا دخل على لوط ضيف أخبرت قومها بهم، ورغبتهم في الفاحشة معهم أو كما قيل: كانت من النساء سحاقيات كما كان في الرجال اللواط. وكانت زوجة لوط واحدةً منهن، فنزل العذابُ على كل من أصيب بهذا المرض، وخالف النبي وكذبه بكل جرأة أو من كانوا يساعدونهم على طريق الكفر والفاحشة.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

وفي آية أخرى قَلْبُ قُراهم، وإنزال الحجارة من السماء. وذهب بعض الأئمة إلى أن عقوبة اللوطي اليوم كذلك إسقاطه من مكان عالٍ من جبل وغيره، وإتباع الحجارة عليه، وحبسه في مكان قذرة قبيحة الرائحة.

تنوع الصلاة: المدرسة الحضاريّة الأولى

بقلم: الأستاذ / أحمد بسام ساعي

هـل حـدث أن تـساءلتم كـما تـساءلتُ مـرّةً: لِمَ جاءت صلواتنا هكذا مختلفة الطول وعدد الركعات والحركـــات والقـــراءات والأوقـــات والأســـماء والأنواع؟ لِمَ لم تكن ذات شكلٍ واحدٍ وطولٍ واحدٍ ولونٍ واحدٍ كصلوات كثيرٍ من الأديان الأخرى؟ لِمَ هـــذا التنـــوّع و«التعقيـــدات» والـــصعوبات والإرباكات»؟ لِمَ تتنوّع بين فرض وسنّةٍ ووِتر؟ وبين سنّةٍ قبليّةٍ وبعديّة؟ ومؤكّدةٍ وغير مؤكدة؟ ونهاريّةٍ وليليّة؟ وسرّيةٍ وجهريّة؟ وجماعيّةٍ وفرديّة؟ إنّها تبدو بهذا وكأنّها مادّةٌ دراسيّةٌ صعبةٌ وعالية المستوى؛ يحتاج من يصلّي إلى أن يخوضها ويتقنها بأكملها حتّى يعرف كيف يصلّي. أليس في هذا تصعيبٌ على الصغار والقصّر والأمّيين والجهلة؟ فكيف وقد نزل الإسلام في أمّةٍ أمّيةٍ لا تقرأ ولا تكتب؟

إنّ عقولنا الشريّة القاصرة لن تحيط بالحكمة الإلهيّة الكبرى وهي تحاول البحث عن أجوبةٍ لهذه التساؤلات ولكنّنا – بوصفنا مسلمين – مأمورون أن «نفكّر» وأن «نعقل» وأن «ننظر» في حِكم الله فيما أراد لنا، محاولين أن نصل إلى بعضها إن لم نصل إلى كلّها.

وكم تساءلنا وتساءل العالم معنا: كيف استطاع الإسلام أن ينقل العرب، وبهذه السرعة القياسيّة التي تخطّت حتّى سرعة ثورة الكومبيوتر اليوم، من أمّةٍ يحتاج فيها من يقرأ رسالةً، لو حدث أن كُتبت رسالةٌ في ذلك اليوم، لأن يسافر كي يجد من يقرؤها له، إلى أمّةٍ أسّست، فيما لا يزيد على عِقدين أو ثلاثة عقودٍ من السنين، لعلوم اللغة، والنحو، والصرف، والمعاجم، والبلاغة، والنقد، والتفسير، والقراءات، والحديث، والفقه، والسيرة، والرجال، والأرض، والتاريخ، والجغرافيا، والفلسفة، والمنطق، والطب، والفلك، والحساب والرياضيات، وعدّ ما شئت من علوم؟

كان للصلاة دورها في هذا التسارع العجيب في ولادة الحضارة الإسلاميّة الذي لم يعرفه تاريخ الحضارات قبل ذلك، ولا بعد ذلك.

لقد كان هذا التنويع الصعب في حركات الصلاة، والقراءات فيها وطرق قراءتها، وأوقاتها، وأشكالها، وأعداد ركعاتها، وأنواع هذه الركعات، هو المدرسة الأولى التي يمارس فيها دماغ الطفل المسلم تدريباته الفيزيائيّة لتوسيع خلايا الدماغ وتهيئته للتفكير والحفظ والتحليل والابتكار والإبداع. إنّها مدرسةٌ تتعلّم فيها أدمغةُ أطفالنا كيف ترتّب أفكارها، وتشعّب مسائلها، وتبوّب موضوعاتها، وتحلّل معطياتها، وتؤسّس علومها وآفاقها الحضاريّة.

ألم يستطع الإسلام، بمثل هذه الميكانيكيّة التعليميّة، أن يحوّل هؤلاء الأمّيين، لا أقول إلى إمبراطوريّة، فكم من الإمبراطوريّات لم تعرف إلّا الغزو والفتك والقتال، كالمغول والتتار، وإنّما إلى حضارة متكاملة الفكر والثقافة والعلوم والأخلاق؟

التلميذ هنا في الغرب يدخل المدرسة في سنّ الخامسة، وفي معظم بلداننا العربيّة والإسلاميّة في سنّ السادسة، أمّا مدرسة الإسلام فيدخلها في سنّ السابعة، السنّ التي أُمِرنا أن نأمر فيها أولادنا بالصلاة.

الصلاة، بهذا التنويع، تعني أنّ على كلّ مسلم أن يدخل مدرسة العلم والتفكير والثقافة والحضارة والبناء في مثل هذه السنّ المبكّرة، وبكلّ ما تعنيه المدرسة من مسؤوليّة، واستيعاب، وحفظ، واستعداد، وتحضير، وتخطيطٍ للنجاح والتفوّق والإبداع، فلا أمّية بعد الآن، ولا جهل بعد الآن، ولا كسل ولا استرخاء ولا تقاعس ولا استسلام للجهل المتوارث. أنت مسلم؛ إذن أنت متعلّم. أنت مسلم؛ إذن أنت حضاريّ.

المادة الأولى التي يجب أن تدرسها في مدرسة الإسلام؛ وتتقنها وتنجح فيها، ثمّ أن تمارسها وتعيشها، هي مادة الصلاة. لا بدّ من حفظ أعدادها، وأوقاتها، وأسمائها، وأنواعها، وأشكالها، وحركاتها، ونصوصها، والتزاماتها، ومحظوراتها، ثمّ لا بدّ، حتّى تكون مسلمًا حقيقيًّا، أن تبدأ بممارستها حال إتقانك لدروسها وتخرّجك من درستها، على عكس ما يجري اليوم في مدارسنا وجامعاتنا من دراسةٍ وتعليمٍ وحفظٍ نجدها تنتهي من حياة الطالب العمليّة، أو تكاد، بعد انتهاء حياته المدرسيّة أو الجامعيّة؛ لتكون الشهادة التي يحملها مجرّد وسيلةٍ للبحث عن عملٍ أو رزق.

هـذا لا يعني أنّ على الطفل الصغير أن يتعلّم كلّ شيء، ودفعةً واحدةً. سيتعلّم تلميذ الصلاة أوّلًا ما معنى الصلاة، ثمّ يتعلّم كيف يتوضّأ لأدائها، ثمّ كيف ينوي لها في نفسه، ثمّ كيف يتّجه عند البدء فيها، ثمّ شروطها حال البدء فيها، ثمّ كيف تتمّ حركاتها، ثمّ ماذا يقول في كلّ حركة، ثمّ عددها في كلّ يوم، ثمّ عدد ركعاتها في كلّ مرّة، ثمّ كيف يضبط أوقاتها، ثمّ كيف يعرف فرائضها وسننها، ثمّ كيف يرتّب هذه الأنواع من الفرائض والسنن في كلّ صلاةٍ من الصلوات الخمس. إنّها دروسٌ عديدةٌ في مادّةٍ واحدة، وهي ليس مادّةً سهلةً، ولكنّ إتقانها سيذلّل للطفل بعد ذلك صعاب كلّ مادةٍ يقبل على مواجهتها من موادّ الحياة.

هذه المادّة الأولى في مدرسة الإسلام، جنبًا إلى جنبٍ مع مادّة القرآن الكريم وإتقان قراءته وتجويده واستظهاره، ثمّ حفظ الحديث النبويّ الشريف، ستقود المسلم الصغير بشكلٍ تلقائيٍّ إلى دراسة الموادّ الأخرى من علوم الإسلام، واستيعاب ما يجب أن يستوعبه منها، وحفظ واستظهار ما يجب أن يحفظه منها، وهذا سيكون مدخله بعد ذلك إلى فهم علوم الحياة والغوص فيها واكتشاف أسرارها.

الصلاة تعني للمسلم ثقافةً وعلمًا، ومن ثمّ: حضارة، وإلّا؛ فكيف تفسّر ظاهرة تفوّق الطلبة الذين نشأوا في بيتٍ يصلّي؛ على أولئك الذين نشأوا في بيتٍ خلا من الصلاة؟

صلاة النصارى لم تتنوّع تنوّعها عند المسلمين لسببٍ بسيط: إنّها لم تنزل في إنجيلٍ ولا توراة، ولأنّه لا دين من غير صلاة، كان عليهم أن يجتمعوا ويخطّطوا لها ويخترعوها. أمّا صلاة المسلمين فقد نزلت بكل دقائقها وتفاصيلها، الكبيرة والصغيرة والأصغر، من عند الله عزّ وجلّ؛ بل خصّص تعالى من أجلها لنبيّه الكريم رحلةً أرضيّةً – سماويّةً فريدةً، فكانت أجمل هديةٍ حملها إلينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من زيارته القدسيّة لربّه، حيث سدرة المنتهى، في رحلته الخالدة للإسراء والمعراج.

* * *

ولكنّ لهذا التنوّع وظيفةً أساسيّةً وهامّةً أخرى في الصلاة غير هذه الوظيفة الحضاريّة، الأساسيّة والهامّة أيضًا، إنّه الخشوع.

تصوّروا لو أنّ الصلوات خلتْ من هذا التنوع؛ إذن لتحوّلت الصلاة إلى درسٍ في الجغرافيا أو التاريخ نحفظه ونردّده كلّ يوم، وهو ما حدث

حقًا عند الكثيرين ممّن لم يدركوا منّا قيمة التنوّع ووظائفه، أو أدركوها ولكنّهم تغافلوا عنها أو أهملوها ولم يشاؤوا أن يستفيدوا من خصائصها العجيبة.

إنّ العدوّ الأكبر للخشوع، هذا الذي به نَعبر بصلاتنا كلّ طبقات الفضاء الخارجيّ للوصول إلى الله، هو، مرّةً أخرى، استسلامنا، مع الزمن والكسل والعادة، لسيطرة عنصر الرتوب والتكرار والتلقائيّة والألفة القاتلة على ميكانيكيّة هذه الصلاة بحيث تفقد معناها الحقيقيّ. فكيف السبيل لتجنّب هذا الخطر الأكيد والمتلاحق والملحّ على صلواتنا، والذي يَحول بيننا وبين الاتّصال بخالقنا العظيم جلّ جلاله؟

إذا انتابك الأرق مرّةً وبحثت عن وسيلةٍ تعينك على النوم فخير ما تفعله هو تكرار شيءٍ ما: تكرار عبارةٍ تحافظ على قراءتها وترديدِها حتّى تغفو، وتركيز بصرك على صورةٍ تتراءى لك فيما يتراءى للمرء وهو مغمض العينين، فتلاحق هذه الصورة وتتشبّث بها مهما غيّرتْ من شكلها أو لونها أو اتّجاهها، تكرار نغمةٍ أو إيقاعٍ تردّده أو تستمع إليه، وينطبق هذا حتّى على صوت طاحونة أو أصوات مدافع ثقيلة، أو تكرار لمسةٍ أو تربيتةٍ يربّت بها أحدهم عليك أو تربّت بها على نفسك، تمامًا كما نفعل مع أطفالنا الصغار..

كلّ ما فيه تكرارٌ أو رتوبٌ أو ميكانيكيّة سينتهي بنا إلى فقدان الوعي الذهنيّ والانفلات من القيود الفكريّة، ومن ثمّ إلى الشرود، وربّما النوم..

هل لاحظت وأنت تقود سيّارتك على الطرقات العالية العريضة المستقيمة الممتدّة؛ كيف يساورك النعاس الملل، وربّما الشرود: شكلٌ واحدٌ للطريق لا يتغيّر، وسرعةٌ واحدةٌ لا تكاد تزيد أو تنقص؟

ولكن عندما تقود سيّارتك في الطرقات الضيّقة الفرعيّة الملتفّة، فلن يكون أمامك فرصةٌ للنعاس أو الملل، كيف وأنت مقبلٌ بين اللحظة والأخرى على منعطفٍ أو إشارةٍ أو منظرٍ طبيعيٍّ يعيدك إلى نفسك وينتشلك من أيّ شرودٍ أو نعاسٍ أو ملـلٍ يمكن أن تساورك أو تستولي عليك في الطريق.

إنّ العدوّ الأوّل للخشوع والاستغراق في الصلاة والتفكّر في معانيها، للوصول من خلالها إلى الله، هو الاستسلام للألفة والعادة وعدم استثمار التنويع أحسن استثمار، فيما تسمح لنا به هذه العبادة

من أنواع التنويع، والإصرار على السير في «الطريق العالية» الجامدة وليس في الطرق الفرعيّة الحيّة ذات المنعطفات المتنوّعة والمتبدّلة باستمرار..

عندما نتغافل عن هذا الجانب التنويعيّ الهامّ في الصلاة، وعندما نكرّر في كلّ صلاةٍ السوَر نفسها، والأدعية نفسها، وفي الأوقات نفسها، فلا نغيّرها بين الحين والآخر، في المدى الذي حدّدتْه لنا السنّة طبعًا، فإنّنا نمهّد بذلك لزحف الشرود أو الملل أو النوم على وعينا، رغم أنّنا مقبلون على موقفٍ نحن أحوج ما نكون فيه إلى التيقّظ والتحفز والترقّب، وقد عزمنا على إنجاز هذا التواصل الكبير المرتقب مع الله.

وقواعد الصلاة كما سنّها لنا رسول الله ﷺ، بوحيٍ منه تعالى، فيها من بوّابات الانفتاح ما يكفي ليمنحنا فرصًا إضافيّةً كثيرةً للتنويع والشعور بالتغيير والتجديد؛ بهدف التخلّص من تسلّل أخطار الرتوب والتكرار والألفة إلى نفوسنا:

١- فحينًا تكون ركعاتنا جهريّةً (الفجر)، وحينًا سرّية (الظهر والعصر)، وحينًا مختلطةً (المغرب والعشاء).

٢- وحينًا تكون نهاريّةً، وحينًا ليليّةً.

٣- وحينًا تكون بأربع ركعات، وحينًا بثلاث، وحينًا باثنتين، وحينًا بركعة.

٤- وحينًا تكون جماعيّةً (الفروض)، وحينًا تكون فرديّةً (السُّنن والنوافل).

٥- وحينًا تكون صيفيّةً متباعدة الأوقات والمسافات، وحينًا تكون شتويّةً متقاربةً.

٦- وتتقدّم هذه الأوقات أو تتأخّر كلّ يوم، ويستمتع المصلّي، ويحافظ على تيقّظه ووعيه، بهذا التنوّع والتجدّد اليوميّ المستمرّ حين يراجع يوميًّا جدول أوقات الصلاة وهو يراها تزيد هنا أو تتراجع هناك دقيقةً أو دقيقتين؛ بل يستمتع وهو يلاحق هذه التغيّرات، وتلاحقه، حين ينتقل من مدينةٍ إلى أخرى ومن بلدٍ إلى آخر.

٧- وحينًا تكون فروضًا، وحينًا تكون سُننًا أو نوافل، وهذه الأخيرة تنشعب إلى أنواعٍ أيضًا.

٨- وحينًا تُشترط فيها الإقامة (الفروض)، وحينًا تخلو منها (السنن والنوافل)؛ بل يختلف الحكم في هذه الإقامة بين الذكور والإناث.

٩- وحينًا تكون السنن قبليّةً (أي تؤدَّى قبل الفرض، كالفجر والعصر)، وحينًا تكون بعديّةً (أي تؤدَّى بعد الفرض، كالمغرب والعشاء)، وحينًا تجمع

بين النوعين (كالظهر).

١٠- وحينًا تكون السنّة مؤكَّدةً، وحينًا تكون غير مؤكَّدة.

١١- ونودّي بعض هذه الصلوات في المساجد (الفروض)، وبعضها في المنازل (السنن والنوافل)، وبعضها في المصلَّى (صلاتَي العيدين). يقول ﷺ: «صلاةُ أحدِكم في بيتِه أفضلُ من صلاتِه في مسجدي هذا إلا المكتوبةَ» [صححه الألباني في صحيح الجامع، عن زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر]، وقال: «اجعلوا مِن صلاتكم في بيوتكم ولا تتّخذوها قبورًا» [رواه مسلم، عن عبد الله بن عمر].

١٢- ولنا، بعد ذلك، فرصٌ أخرى للتنويع؛ كأن ننوّع في المساجد، فنجعل صلاتنا في هذا المسجد حينًا وفي غيره حينًا آخر، أو في هذا الموضع من المسجد حينًا وفي موضعٍ غيره حينًا آخر؛ بل يُستحسن تغيير موضعنا في المسجد في كلّ صلاة بعد أداء الفرض: «إذا صلّى أحدُكم المكتوبةَ ثمّ أراد أن يصلّي بعدها فليتقدّمْ ولا يتكلّم. وفي رواية: فليتقدّم قليلًا أو ليتأخّر قليلًا أو عن يمينه أو عن يساره». [رواه ابن عبد البرّ في الاستذكار، عن عبد الله بن عباس].

١٣- ومن رحمة الله أنّه نوّع لنا في حجم سوَر القرآن الكريم التي نختار منها ما نريد لتلاوته في صلواتنا؛ فمنها القصير ومنها المتوسّط ومنها الطويل ومنها الأطول، ولك الخيار في أن تنتقي لكلّ صلاةٍ ما يناسب ظروفك ووقتك ووقت الصلاة، من غير أن يخلّ هذا طبعًا بعنصر الخشوع. لكي تعرف قيمة هذا التنوّع لك أن تتصوّر لو أنّ سوَر القرآن جاءت كلّها بحجم سورة (البقرة) مثلًا، أو جاءت كلّها بحجم سورة (الواقعة)، أو بحجم سورة (الكوثر)، إنّ فرص الاختيار، وأنت تحاول الاكتفاء بجزءٍ من السورة لتؤدّي صلاةً أقصر، أو حين يكون عليك أن تقرأ عددًا من السوَر في كل ركعةٍ وأنت تحاول أن تؤدّي صلاةً أطول، قد تغدو أمامك أكثر صعوبةً وأقلّ مرونةً، ومن ثمّ أقلّ تنوّعًا.

ولكنّ الشارع ترك للمصلّي، إلى جانب هذه الأنواع المتعدّدة والمتفاوتة من السوَر، فرصًا أخرى داخل كلّ صلاة يغْني بها هذا التنوّع.

هل جرّبت، مثلًا، لذّة أن تغيّر السوَر التي اعتدت أن تقرأها في صلواتك؟ كأن تبادل مثلًا بين السوَر التي تقرأها في صلوات الليل وتلك التي تقرأها في صلوات النهار؟ أو أن تقرأ بآياتٍ من السوَر الكبيرة، كالبقرة أو مريم أو يوسف، في

صلوات الليل أو النهار، بدلًا من قصار السوَر؟ إنّ الخروج عن الألفة سيجعل صلاتك أكثر حيويّةً وخشوعًا، وكلما تك أكثر حرارةً وصدقًا مع الله.

١٤- هناك أنواعٌ من الأوضاع المستقرّة وأنواعٌ من الأوضاع المتحرّكة تتابع باستمرارٍ في كلّ صلاة. إنّ هناك ثماني حركاتٍ متنوعةٍ على الأقلّ في كلّ ركعة: رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام، وربما في غيرها من التكبيرات أيضًا، الوقوف، الركوع، الاعتدال، الهبوط للسجود، الجلوس، السجود من وضعيّة الجلوس، ثمّ القيام للركعة الثانية. ويضاف إلى كلّ ذلك التفات التسليمتين، يمينًا ثمّ شمالًا، في نهاية الصلاة. وبين كلّ وضعين من هذه الأوضاع المتحرّكة أوضاعٌ أخرى يستقرّ فيها المصلّي، وتخشع جوارحه، وتهدأ حركته.

١٥- وكلّما تحرّك المصلّي حركةً تبدّل معه النصّ الذي يقرأه، فيتغيّر النصّ مع تغيّر وضعيّة المصلّي، واقفًا أو راكعًا أو ساجدًا أو جالسًا أو مسلّمًا، فللوقوف تلاواته، وللركوع تسبيحاته، وللسجود تسبيحاتٌ أخرى مختلفة، وللجلوس قراءاته وأدعيته وأذكاره..

* * *

إنّ هذا التنوّع في عدد ركعات الصلوات الخمس، واختلاف أوقات هذه الصلوات، واختلاف طبيعة القراءة فيها، وكذلك اختلاف أوضاع الجسم وحركة الأعضاء في الصلاة، واختلاف القراءة مع اختلاف حركات الجسم، وغيرها كثيرٌ ممّا أحصيناه من فنون التنوّع، من شأنه أن يجنّبنا احتمالات الشرود أو انصراف الذهن عمّا نمارسه أو نقوله في الصلاة، وأن يُبعد عن نفوسنا الرتوب والجمود، ومن ثمّ، أن يجعلنا أكثر وعيًا لما نقول، وأشدّ خشوعًا وإحساسًا بالصلة مع الله أثناء أدائنا لهذا الركن الأساسيّ من عباداتنا اليوميّة، فضلًا عن أنّه تدريبٌ عمليّ رائعٌ للدماغ يعدّه للمزيد من الدروس التي كانت دائمًا، ويجب أن تظلّ، الأرض التي ننطلق منها في بناء الحضارة الإنسانيّة.

درس الصلاة، بتنوّعه الفريد هذا، ليس درسًا سهلًا، ومتى كان بناء الإنسان عملًا سهلًا، وتأسيس الحضارات أمرًا عاديًا، وإقامة الدول تشييدها ممّا يتحقّق بغير هذه الروح، ويُنجز بغير مثل هذه الهمم العالية؟

* * *

من تـاريخ الجامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبنـد

(الحلقة ١٣٠)

مقدمة الكتاب

بقلم: **حكيم الإسلام المقرئ الشيخ محمد طيب -رحمه الله رحمةً واسعةً-**
الرئيس الأسبق للجامعة الإسلامية دارالعلوم، ديوبند
نقله إلى العربية: محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري(*)

وغير خافٍ أنه مادامت حقيقة هذه المدرسة ومعنويتها أي فكرتها الأساسية ومقوماتها جاءت من الإلهام الرباني، فمن الطبيعي أن يكون للإلهامات الإلهية يد في تصويرها وتشكيلها وبنائها؛ فإن وجود الصورة يتبع -طبعًا- لحقيقتها، ويشكل ظلًا ومظهرًا لها تتجلى فيه تلك الحقيقة. فلم يأتِ تأسيسها وإجراؤها وبناؤها وتنظيم هيكلها الإداري حتى اختيار شخصياتها الأساسية والمركزية بما يناسب معنويتها عن طرق التشاور العامة المعروفة بأن يجلس بعض ذوي الرأي والفهم، فيتشاوروا في إنشاء مدرسة، وبعد نقاش وبحث اجتمعوا على رأي واحدٍ، فجسدوه على أرض الواقع؛ بل تبدو جميع أمورها التشكيلية والتكوينية – على شاكلة فكرتها المركزية- خاضعةً لبعض الإلهامات والواردات الغيبية. فالفكرة المركزية – التي انطلقت من عائلة ولي الله الدهلوي إلى الإمام قاسم و رشيد- ألقيت في قلوب أولياء الله في عصرهم بإلهام رباني حين جاء تشكيل هذه المدرسة العقلي عند نشأتها. واجتمعت أرواحهم دون استثناء ظاهر بصورة مفاجئة على قول واحدٍ. ورغم أنه أضفي عليها – اتباعًا للسنة النبوية وبمقتضى قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ولكن جعلوا الإشارات الغيبية هي الأصل. فكان كلما تجتمع هذه الشخصيات القدسية لم يقدم بعضهم لبعض إلا مكاشفاتهم، فإن قال قائل منهم: ألقي في روعي أنه لابد من إنشاء مدرسة لإجراء التعليم الديني في الهند اليوم، فيقول الآخر: لقد رميت السهم عن قوس إرادتي. و يقول قائل منهم: انكشف لي إنشاء المدرسة، فيقول الآخر: لقد رميت السهم عن قوس إرادتي. فيقول الرابع: أريت في

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

المنـام أن الحاجـة ماسـة إلى إنـشاء المدرسـة اليـوم، فيقول الآخر: هذا ما انكشف في قلبي. والحاصل أنه كان صوت واحد يدوي في قلوب هؤلاء جميعًا على أنه داعية من دواعي القلب. وحاصلها – كما نصوا عليه – أنه مادام قد طوي بساط الحكم الإسلامي، ولم يبق من يشرف على العلم إشرافًا جماعيًا، فإن كان فيها أحد له عناية بهذا الشأن فإنه لا يتجرأ على التقدم والإقبال نظرًا لعدم مساعدة الأوضاع، فما تبقى من إرث العلوم النبوية أصبح في مهب الريح، والمخاوف قائمة من أن يقع جيل المسلمين فريسةً للجهل والأمية، وتشتد عليهم قبضة الأعداء، فيُقضى على الأمة الإسلامية ودينها في هذه البلاد، فلابد من إنشاء مدرسة تساعد على الحفاظ على الأمة وتداركها عن طريق التعليم والتربية. فإن المسلمين ماداموا يحتفظون بالوعي الديني والتعليم الديني والعواطف الدينية، فإنه بإمكانهم أن يتداركوا دنياهم مادام دينهم مصونًا محفوظًا، وأما إذا فقدت الأمةُ أساسها، فهيهات وهيهات أن يتأتى إعادة بنائها. فلم يبق سبيل إلى حفظ الدين إلا بإنشاء المدرسة. وغير خافٍ أن بروز انكشافات هؤلاء الأكابر على هذا الوجه لم يأتِ عن طريق مشورة رسمية؛ بل عن طريق تبادل الإلهامات والمبشرات الغيبية، التي انعقد عليها الإجماع الباطني والروحاني، الذي تمثل في نشأة مدرسة دارالعلوم في ١٥/ المحرم الحرام ١٢٨٣هـ. وهذا مما يوضح أن قضية نشأة هذه المدرسة كانت – مثل فكرتها المركزية – إلهامية، تحققت عن إشارات غيبية؛ بل قبل عهد هؤلاء المؤسسين بزمن طويل تفطن – علاوةً على عائلة الشاه ولي الله الدهلوي– أهل الله الآخرون في الهند لنشأة هذه المدرسة؛ بل حتى لموقعها بإشارات من الغيب، وأعربوا عنها بإشاراتٍ لطيفةٍ.

وسمعت كثيرًا أكابري يقولون – وكان ذلك في أوساطهم أمرًا عامًا ومشهورًا على الألسنة، ثم يؤيده الأوراق التاريخية أيضًا–: إن السيد الشهيد رحمه الله مر بديوبند في طريقه إلى القتال في ولاية «سرحد» فلما بلغ الموضع الذي تقوم فيه المدرسة اليوم، قال: أجد هنا ريح العلم، في حين كان ذلك المكان مزبلةً للمدينة، ولكن المثل الأردي يقول: إن حظ الأصداف بدوره يتحسن بعد مرور الاثني عشر عامًا» – أي البؤس والشقاء لايدومان–، فانفجرت من هذا المكان روائح العلم، كما أشار إليه السيد الشهيد رحمه الله، مما يوضح أن موقع دارالعلوم بدوره تعين بإشارات من الغيب، مما شكل دافعًا لدواعي قلوب هؤلاء الأكابر تحت الأسباب الطبيعية، فتوصلوا بدواعي قلوبهم إلى

تحديد هذا المكان، الذي انتقل غيبًا وراء غيب إلى قلوبهم، حتى تجلى على منصة الظهور في عام ١٢٨٣هـ في المدرسة. واستعد الإمام النانوتوي لتدشين المدرسة مع أصحابه ذوي الضمائر المنيرة. وكتب الحاج محمد عابد إلى الإمام النانوتوي في «ميروت» بأنه قد تجمع كمٌّ من التبرعات، فهيا هلا، فلم يلبث النانوتوي أن طلب الملا محمود – الذي كان يدرس في مدينة «ميروت» – وقال له: سيدي، كم تتقاضى من الراتب هنا؟ فقال: عشر روبيات، فقال النانوتوي: ما رأيك لو فرضنا لك راتبًا قدره خمس عشرة روبية وتقيم في ديوبند وهي موطنك؟ فقال الملا: سيدي، ما أحسن من هذا! فعينه النانوتوي مدرسًا في دارالعلوم، وهو لازال في مدينة «ميروت»، وأرسله إلى ديوبند، وكتب إلى الحاج محمد عابد: أرسل إليك الملا محمود براتب قدره خمس عشرة روبية، فقم بإجراء عمل التعليم والتدريس، ولاتنتظر مقدمي. سأوافيكم فيما بعد. ويرجع لأسباب عدم الحضور ومصالحه إلى مقالة «مؤسس دارالعلوم» المنشورة في جريدة «مدينة» الصادر في «بجنور»، شهر أكتوبر عام ١٩٦٥م.

و تم تدشين التعليم والتدريس في مسجد «تشته» ولم يبدأ بناء المدرسة إلا بعد ذلك بثماني سنوات، واجتمع هؤلاء المشايخ كلهم بمناسبة وضع حجر الأساس لها. وبما أن شؤون المدرسة الأساسية كلها كانت تتحقق ببشارات من الغيب، فكان هؤلاء الأسلاف المحترمون ينظرون إلى التوجه إلى الله تعالى ودعائه وطلبه واستكشاف الغيب أكثر من نظرهم في التشاور والتفاهم بينهم فيما يخص هذه المدرسة، وكانوا ينفقون أوقاتًا أكثر في ذلك الجانب. وبعبارة أخرى: إن نشأة هذه المدرسة كانت تعتمد على المدد الإلهي أبعد عن الأسباب العادية، لا على تحصيل التبرعات وجمعها، وخيرشاهد على ذلك القصة التالية التي ساقها في كتاب «أرواح ثلاثة»، وقد سمعتها على ألسنة أكابري أيضًا. تقول هذه القصة: إن «ديوان محمد يس»– أخص مريدي الإمام محمد قاسم النانوتوي، وأحد أجدادي من الأم، وأول من شغل أمانة مكتبة دار العلوم – شد رحاله للحج بعد نشأة دارالعلوم، وكان يكثر من حضور مجلس شيخ شيخه الحاج إمداد الله قدس سره في مكة المكرمة. وعندما أراد أن يودع الحاج إمداد الله طلب منه قائلًا: سيدي، ادع الله تعالى لصالح مدرستنا. فقال الحاج إمداد الله: واهًا! كم خررنا ساجدين متضرعين إلى الله تعالى ليالي لإنشاء هذه المدرسة، نقول: اللّٰهم، أعنا على إنشاء المدرسة للحفاظ على دينك وعلمك، فكيف تقول: مدرستنا؟». ثم قال: كان يخطر ببالي أن المدرسة

ستقام في «تهانه بهون»- وهي موطن الحاج إمداد الله- أو في «نانوتـه»- وهـي مـوطن الإمـام محمـد قاسـم النـانوتوي-، ولم نعلـم أن سـكان «ديوبنـد» يسبقون بها؟».

وهـذه الأحداث تبين بجلاء أن عاطفة إنشاء مدرسة ديوبند أول من راودها هو زعيم الجماعة الحاج إمداد الله قدس سره، ثم انتقلت منه إلى جماعته. وكان هؤلاء كلهم أصحاب الباطن، فتأصلت في باطنهم جميعًا عاطفة إنشاء المدرسة، وقد عبرنا عنها في السطور السابقة بـ(الاجتماع الباطني)، ولم تتجاوز هذه الفكرة فيهم في الغالب نشأة المدرسة، التي حاصلها تعليم الدين، هادفين من وراء ذلك إلى الحفاظ على المسلمين وبقائهم في هذه البلاد، وأما الفكرة المركزية الخاصة بالمدرسة، وهدفها الشامل العام، وكذلك مواجهة الأفكار الإلحادية الدنيوية التي استوردها الإنجليز إلى هذه البلاد على وجه علمي، بالإضافة إلى لمّ شعث الأمة، واستعادة المجد الغابر في هذه البلاد على وجه أخص، أو نشر نفحاتها وآثارها إلى العالم الإسلامي كله بالثقة بالنفس وغيرها من العواطف، وأنظمة العمل، لم تكن تجيش إلا في قلوب الذين شاركوا في معركة «شاملي» جنبًا إلى جنب إمام الجهاد الحاج إمداد الله رحمه الله، وشاهدوا بأم أعينهم أشلاء المسلمين ملطخةً بالدماء والتراب، وخاصةً منهم مولانا محمد قاسم ومولانا رشيد أحمد اللذين كانا يشكلان اليد اليمنى للحاج إمداد الله، ممن جعلوا نصب أعينهم لا فكرة المدرسة وحدها؛ بل أفكار الاجتماعية والوحدة أيضًا، وكان الإمام محمد قاسم النانوتوي يتقدمهم في هذه العواطف نظرًا إلى نقطة الاجتماعية والوحدة هذه، الذي كان جعله شيخه في الطريقة الحاج إمداد الله ترجمانًا لما يكنه قلبه، كما قال الحاج إمداد الله وهو يشبه الإمام النانوتوي بمولانا الرومي: «كان مولانا الرومي ترجمانًا لشمس تبريز، الذي ظهر على يده علومه ومعارفه ومكنونات باطنه، وقد جُعِل المولوي محمد قاسم ترجمانًا لي، أي يتجلى به علومي ومعارفي ودواعي قلبي. ومن ثم برزت هذه الكيفيات الإمداد اللاهية في النانوتوي رحمه الله أكثر، وما إن حمل الحاج إمداد الله راية الجهاد ضد الإنجليز حتى كان النانوتوي رحمه الله أول من انزوى تحتها، وهو الذي حمل الشيخ الكنكوهي بعد نقاش وحوار امتد خمسة أو ستة أشهر حوله. وكذلك العاطفة الإمدادية التي سرت في هذه المدرسة المقترحة وفكرتها وهدفها - كما تجلى بالقصة السالفة الذكر- لم يكن يتقدم إليها إلا من أعلن الحاج إمداد الله أنه ترجمانًا لباطنه.

فروى مولانا حبيب الرحمن رحمه الله سادس رؤساء دارالعلوم/ديوبند أنهم حين درسوا قضية رفع بناء دارالعلوم، وأبدى الإمام قاسم النانوتوي الحاجة إليه، عارض الحاج محمد عابد رحمه الله – وهو من مؤسسي دارالعلوم – إقامة مبنى مفرد لدارالعلوم وقال: «مادام يتوفر في المدينة مسجد جامع موسع، يحتضن من جوانبه كلها عددًا من الحجرات يسع سكنى ٣٠-٤٠ طالبًا، ويكفي الجزء المسقف الموسع للجامع لتلبية حاجات التدريس والإفادة، فما بالنا نضيع أموال المسلمين في إقامة مبنى مفرد للمدرسة؟». وانتهى الإمام محمد قاسم النانوتوي – و هو يعلل إقامة المبنى قائلًا: «سيدي الحاج، إنك لاترى فيما يخص هذه المدرسة ما أراه، ولن تتوقف هذه المدرسة على هذا القدر؛ بل تتقدم وترتقي، ولن يحقق أهدافها الأساسية إلا مبنى مفرد لها». واستمر النقاش والحوار مزيدًا من الزمان وقصته طويلة، ونحن في غنى عن التعرض لها هنا، ورضي الحاج محمد عابد هو الآخر بذلك، فاجتمعوا على وضع حجر أساسها.

ويبين ذلك أن فكرة مؤسسي المدرسة الأكابر هؤلاء لم تتجاوز بصفة عامة التعليم و التدريس، واستمرت حتى وضع أساس المدرسة أيضًا، في حين قد انقضى على تدشين المدرسة ثمانية أو تسعة أعوام، ولم يكن نصب أعينهم هذا الهدف الموسع العالمي الذي كان يكنه الإمام محمد قاسم وأصحابه من زملائه في حرب «شاملي» بإشارات من الغيب وبفيوض ولي الله و إمداد الله. وفي أعقاب جهاد «شاملي» تبلورت هذه الأهداف بقوة أشد وعزيمة آكد مصدرها الحاج إمداد الله ورئيس الطائفة الإمام قاسم النانوتوي.

وظاهر هذه الفكرة الولي اللاهية والإمداد اللاهية التعليم والتدريس، ويكمن في باطنها العواطف الجماعية نحو إعلاء كلمة الله عن طريق التعليم هذا، وعز المسلمين الآفاقي وشوكتهم، وخدمة الملة على مستوى عالمي. وإشارة إلى هذه الحقيقة ساق مولانا مناظر أحسن الكيلاني في مقال له بعنوان «أيام قضيتها في رحاب دارالعلوم» منشور في مجلة «دارالعلوم/ديوبند» كلمة شيخ الهند، فقال:

«هل أنشأ سيدي الأستاذ – يقصد به الإمام النانوتوي– هذه المدرسة للتدريس والتعليم والدراسة؟ إن المدرسة نشأت بين يدي، وفيما أعلم أنشئت هذه المؤسسة بعد فشل ثورة عام ١٨٥٧م بهدف إنشاء مركز يقوم بإعداد الناس وتهيئتهم، ليتأتى تدارك ما فات في عام ١٨٥٧م».

وانتهى إلى القول:

«لا أقــف في وجــه مــن يــستهدف التعلــيم والتـدريس والدراسـة، وأمـا بالنسبة لنفسي فاختـار الطريـق الـذي أنـشأ لأجلـه سـيدي الأسـتاذ نظـام دارالعلوم هذا».

وفعلًا وضع الإمام في رحاب المدرسة نظام تعليم الجندية، لتستمر روح الجندية بجانب العلم، وأنـشأ نظـام القـضاء، للحفـاظ عـلى تنفيـذ أحكـام الـشرع فيهـا، وسـعى سـعيه لتقـديم المعونـات إلى الأتراك، ونسج القصائد في مديح السلطان التركي، ليكون أبناء المدرسة على صلة بالخلافة الإسلامية، وقـام - بعـد سـيطرة الإنجليـز- بجانـب اللجـان الاجتماعية التي أنشئت لاستعادة الحقوق الوطنية من الإنجليز، ونحو ذلك مما لايسعه فناء المسجد الجامع.

شـهدت هـذه الأهـداف كلـه النمـو والرقـي في الجيل القاسمي، وفي ضوء ذلك قام خلفه في العلم شيخ الهند رحمه الله بتنمية هذه الأهداف الوطنية، ثـم إن تلامذتـه بـدورهم قـاموا بتقويـة الخطـوط التعليميـة، دون أن ينـأوا بجـانبهم عـن الخـدمات الاجتماعيــة؛ بــل شــاركوا في جميــع الحركــات الاستقلالية مشاركةً قياديةً. وإذا كان سلفهم واقفين في وجـه الإنجليـز في سـاحة «شـاملي» فـإن جـيلهم واجهــوا هــؤلاء الإنجليــز أنفــسهم في غياهــب السجون. وهم المتصدرون في قول الحق ليومنا هذا. ونظرًا إلى هـذه الفكـرة الموسعة العالمية لـدارالعلوم كـان مولانـا حبيب الرحمن يقـول: «إن هـذه المدرسة تشكل بصورة تكوينية، قطبَ الرحى لجميع شؤون هـذه الـبلاد، تـدور حولهـا شـؤونها الاجتماعيـة عـن وعـي أو غـير وعـي، وتمثـل هـذه المدرسـة بـصورة تشريعية مجددًا من المجددين، قامت بتجديد مختلف نواحي الدين، وقضت على الطقوس غير الشرعية، ومهـدت الطريق إلى اتبـاع السنة النبويـة، وهـذه هـي الفكرة الجامعة الشاملة التي أسست عليها مدرسة دارالعلـوم. ووضـع الإمـام قاسـم النـانوتوي المبـادئ الثمانية الأساسية العامرة بهذه العواطف الاجتماعية الـشاملة التـي تـشكل حجـر الزاويـة لهـذه المدرسـة، ولاتزال ساريةً عليها، وعلى الفكرة الاجتماعية هذه وضـع نظامهـا التعليمـي، وكيانهـا الإداري، وبهـا برزت خصائصها التعليمية إلى منصة الظهور، التي وردت جيلًا بعد جيل على النسبة القاسمية. وبهذه النـسبة قـام في هـذه المدرسـة مـدا رالحـديث ومـدار الـسند و الاسـتناد، ممـا يتربـى عليـه خريجـو هـذه المدرسة ليومنا هذا. ومن ثم قيل- وصدق من قال إذا تأملنـا فيـه-: إن الديوبنديـة في الواقـع في ضـوء الفكـرة الـولي اللاهيـة عبـارة عـن الفكـر القاسـمي، وعليه يسمي خريج هـذه المدرسة نفسه قاسميًا أو

يطلق عليه. وعلى كل، فما قاله الحاج إمداد الله رحمه الله لـ(ديوان محمد يٰس) يوضح أن الفكرة الأساسية لهذه المدرسة تجلت عن الإلهام، وتربت في قلوب مجاهدي «شاملي» الصافية، ومرورًا بقلوب جميع المجاهدين من أهل الله تعالى تمثلث في مدرسة ديوبند. وحاصل ذلك كله ليس إلا أن المساعي المبذولة لإنشاء هذه المدرسة لم تكن الأسباب الظاهرة تشكل في عين هؤلاء الأسلاف محورًا لها؛ بل كانت أسبابًا من الغيب، وهي قوامها. وثانيًا: إن كان يخطر ببال أحدهم شيء يخص موقع إقامة المدرسة نظرًا إلى الأسباب فإن سلسلةً من الكشف والانكشاف الغيبي كان يتغلب في نطاق العمل أخيرًا، مما قُدِّر له أن يقع في القلوب بدوافع غيبية، ثم في الخارج. والحاصل أنه كما كانت الفكرة الأساسية لهذه المدرسة نابعةً من الإلهام، كذلك الدواعي إلى نشأتها كانت إلهاميةً، كما كان تحديد موقعها نابعًا من الإلهام أيضًا.

وحين نظروا في إقامة البناء على هذا الموقع، وخططوا لمبنى المدرسة تخطيطًا، وحفروا الحفرة، التي لم تُملأ بعدُ، إذ رأى مولانا رفيع الدين رحمه الله الديوبندي -ثاني رؤساء دارالعلوم، ومن كبار أولياء الله- في المنام أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حضر هذا الأساسَ، وفي يده عصًا، وقال: هذا الأساس الذي حفِرَ - في الجانب الشمال - مما يضيق على فناء المدرسة». ثم تقدم من هذا المكان إلى الجانب الشمالي عشر أذرع أو عشرين ذراعًا، ووضع علامةً بعصاه فيه، وخط خطًا طويلًا، وأمر بحفر الأساس فيه. فما إن استيقظ مولانا رفيع الدين في صبيحته من نومه حتى جاء إلى المكان المحدد، فوجد أثر الخط فيه على ما خطه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعصاه. ثم إن مولانا رفيع الدين لم يناقش فيه أحدًا ولا شاور فيه؛ بل أمر بحفر أساس جديد، مما يدل على أن فاتحة هذه المدرسة وتحديد مساحتها وفنائها من المبشرات الغيبية، وإلا فقد سبق أن شاوروا في ذلك، وحفروا الأساس على ذلك، ولكنهم قدموا على التشاور هذه البشارة الغيبية والإشارة النبوية، وحق لها ذلك. وهذا يوضح أن هذه الرؤيا كانت رؤيا صادقةً؛ بل تحتل نوعًا من درجة الكشف، لم يخالِج مولانا رفيعَ الدين أدنى ريب في صدقها، وإلا ما كان له أن يتظاهر بهذه الثقة والاعتماد بناءً على مجرد الرؤيا والمنام، ولم يكن ليضحي برأي اتفق عليه الجماعة كلها، ثم إن اتفاق الجماعة كلها عليه، وإلغاء ما رأوه سابقًا، وعدم الاعترض على خطوة مولانا رفيع الدين هذه بشيء؛ بل قبولهم لها عن طوع ورغبة من الأدلة الواضحة على أن أهل الباطن هؤلاء كلهم كانوا يرون هذه الرؤيا من درجة

الإلهام، وهذا يدل على أن أسس هذه المدرسة وشؤونها البنائية بدروها ترجع إلى المبشرات النبوية. ثم إنهم عدوا المبادئ الثمانية التي وضعها مؤسس هذه المدرسة – وهو في الواقع مؤسس مدارس لا مدرسة واحدة – عدوها من الإلهام، فإنها تتضمن التنبؤات الغيبية بالإضافة إلى المبادئ العقلية التي تشهدها التجارب، مما لاسبيل إليها بالعقل والمعرفة، وإنما مردها إلى الإلهام، فقد تنبأ الإمام النانوتوي – و هو يجعل موارد هذه المدرسة على التوكل على الله وعلى نوع من العوز، كما ينص عليها هذه المبادئ الثمانية – تنبأ بأنه فيما إذا تخلف ذلك فالذي يبدو أن المدد الغيبي ينقطع عن هذه المدرسة. وهذا يدل أولًا على أن رصيد هذه المدرسة هو الإمداد الغيبي، ثم قوله فيما يخص المستقبل: «فالذي يبدو أن المدد الغيبي...» يشير بصراحة إلى الإطلاق الغيبي، مما لايسعنا أن نسميه إلا بالإلهام من الغيب، وهو الذي عبر عنه مولانا فضل الرحمن رحمه الله – وهو أحد مؤسسي المدرسة– في قصيدته بعنوان «أرمغان مدرسه»، ما معناه:

«لقد أوصى مؤسس هذه المدرسة بأنه فيما إذا توفر لها مورد مالي مؤكَّد...

فإن هذا القنديل المعلق، ومصباح التوكل اعلم أنه ينطفئ نوره».

كذلك تدل بعض مواد هذه المبادئ الأساسية على نصوص تشير إلى أنهم إذا ما أعرضوا عن العمل بهذه المبادئ فلا خير لهذه المدرسة ونحو ذلك.

ومن هنا حين اطلع على هذه المبادئ حتى المفكرون والعلماء الزائرون لهذه المدرسة اندفعوا إلى القول بأنها – المبادئ الأساسية – من الإلهام. فجاء مولانا محمد علي جوهر رحمه الله إبان حركة الخلافة إلى دارالعلوم، فعرض عليه هذه المبادئ الأساسية بخط يد الإمام النانوتوي، فذرفت عيناه الدموع، واندفع قائلًا: ما علاقة هذه المبادئ بالعقل؟! فإنها ملهَمة». ثم قال: «يا للعجب، لقد توصل هذا الرجل الصالح قبل قرن من الزمان إلى ما توصلنا إليه بعد أن لقينا الألاقي مئة سنة»، يقصد مولانا به عدمَ الاعتماد على عون الحكومة الإنجليزية في إدارة مؤسساتنا الاجتماعية، وضرورة النهوض بها بأيدينا ثقةً بالله تعالى. وهذا يبلور أن كل من يتردد إلى هذه المدرسة يدرك أن هذا المصنع يدور على المدد الغيبي والإشارات الغيبية، فاشتهرت هذه المدرسة بكونها مدرسةً إلهاميةً. كما يتبين به أنها ليست مدرسةً وحدها؛ بل يرجع وجوه رصيدها إلى شيء من الغيب، ثم نجد بعض الإشارات الغيبية تبدو عاملةً حتى في قرارات جزئية للشؤون الإدارية و إدارة المدرسة، وخير شاهد على ذلك ما قاله

مولانا رفيع الدين رحمه الله: لا أتولى إدارة المدرسة، وإنما يتولاها العلامة النانوتوي رحمه الله. قال مولانا رفيع الدين ذلك في حين أنه كان يسعى سعيه كله للمدرسة، ويشرف عليها الإشراف كله، حتى كان يكون على صلة بالتدريس والإفادة في بعض الفترات، ثم كان يقول: إنما يتولى إدارة المدرسة العلامة النانوتوي رحمه الله. ثم فصل مولانا رفيع ذلك فقال: ينعكس على قلبي فيما يخص نظام المدرسة عين ما يلقى في قلب العلامة النانوتوي، فأمضي فيه. ثم يقول العلامة النانوتوي فيما بعد: سيدي، جزاك الله، هذا ما كان يخطر ببالي. فهل نؤول ذلك إلا بالتوافق الغيبي أو الإشارة الغيبية؟ ونصفه لا بإلهام واحد؛ بل بتوارد الإلهام، مما يؤكد أن للإلهامات والمبشرات يدًا كبرى في نظام هذه المدرسة. وبالنظر إلى الأحداث يتبين أن ترشيح الطلاب للدارسة فيها – علاوةً على التقدير الإلهي العام الذي لايخرج عنه شيء- ينكشف بصفة خاصة على سبيل الإلهام والمبشرات على ضمائر هؤلاء الصالحين النيرة، وتعمل فيها إشاراته. وقد احتفظت الأوراق الخطية في دارالعلوم بقصة، قد سمعتها من مشايخي مباشرةً. وتقول القصة: إن مولانا رفيع الدين كان واقفًا في دائرة المولسري قبالة مبنى دورة الحديث الشريف على عهد إدارته للمدرسة، ومعه بعض الطلاب، إذ خفَّ إليه طالب من طلاب دورة الحديث حاملًا معه الوجبة الغذائية من المطبخ، وألقى قعب الإدام على الأرض بقوة بين يدي مولانا رفيع الدين، وقال: أعهد إدارتك يأمرنا أن نتناول هذا الإدام الذي ليس فيه سمن ولا بهارات؟! وأغلظ له مزيدًا من القول. وأثار الموقف حفيظة الطلاب إلا أنهم لازموا الصمت تأدبًا مع مولانا رفيع الدين ونظرًا إلى صمته وسكوته. ولازم مولانا رفيع الدين الصبر والحلم ونظر إلى الطالب من رأسه إلى أخمص قدميه ثلاثًا، ولما أدبر الطالب قال: ما هو من طلاب مدرسة ديوبند؟ثم قال: ليس من طلاب المدرسة. فقال الطلاب: سيدي، إن اسمه مسجل في سجل المطبخ بصورة نظامية، ويتناول الطعام منه دائمًا. فقال مولانا رفيع الدين: مهما كان الأمر، ليس من طلاب المدرسة. فتقصوا من أمر الطالب فتبين بعد بضعة أيام أنه ليس من طلاب المدرسة، وإنما ثمة طالب يواطئ اسمه اسم هذا الطالب، والطالب السمي له جراية الطعام بصورة نظامية، واسمه مسجل في السجلات. وإنما استغل هذا الطالب الوقح تشابه الأسماء، وبدأ يتلقى الوجبات الغذائية من المطبخ. فحرِم الطالب الذي كان أحق بها منه. فلما حصحص الحق دخل الطلاب على مولانا رفيع الدين، وقالوا له: سيدي،

صدقتَ، كان الأمر كما قلت، إنه ليس من طلاب المدرسة، ولكن كيف ساغ لك أن تقول ما قلت بكل هذه الثقة واليقين: إنه ليس من طلاب المدرسة؟

فرد مولانا رفيع الدين عليه قائلًا: «كان يخالجني الخوف في أول أيام توليت إدارة المدرسة، وكنت أحاول الاستقالة منها، فيحول العلامة النانوتوي دون ذلك - فإنه لم يرض بشغل هذا المنصب إلا بأمر منه-، ثم رأيت في تلك الأيام في المنام أن هذه البئر - التي في دائرة المولسري - في دارالعلوم ملئت لبنًا،حتى بلغ طنفها، بحيث تكاد تتناوله بالأيدي. وعليه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، يوزع اللبن، ويتناوله مئات من الناس، فهذا يملأ قربته، وذلك يملأ منه داليته، وهذا يملأ إبريقه، وذلك يملأ قعبه، وهذا يملأ كفيه إن لم يجد إناءً. فكل يحمل من هذا اللبن على قدر سعة ظرفه وإنائه.

وبعد أن رأيت هذه الرؤيا راقبت الله تعالى لأعرف تأويلها ومعناها، فانكشف علي أن البئر صورة مثالية لمدرسة ديوبند. واللبن صورة مثالية للعلم. والنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قاسم للعلوم، والذين يحملون منها هذا اللبن هم طلاب مدرسة ديوبند، الذين تمثلوا في المنام. ومن طرائف ما ذكر مولانا رفيع الدين في هذا الباب أنه حين تبدأ السنة الدراسية - أي شهر شوال -، ويقبل الطلاب إلى المدرسة للالتحاق بها، فأعرفهم جميعًا أن هؤلاء وهؤلاء كانوا جاؤوا ليحملوا اللبن من البئر. ونظرت إلى هذا الطالب الوقح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ثلاثًا، فتبين أنه لم يكن من الجمع الذين جاؤوا ليحملوا اللبن، فقلت بكل ثقة وقوة: إنه ليس من طلاب مدرسة ديوبند. وأحمد الله تعالى على أنه تم التأكد منه أيضًا بالسجلات الرسمية. وهذا يوضح أن الترشيح للدراسة في هذه المدرسة المقبولة إنما يرجع إلى الترشيحات الغيبية التي تلقى في القلوب. و لاترجع إلى مجرد الأسباب الظاهرة، وإن كانوا يقومون بالترشيح والاختيار أيضًا، وحق لهم ذلك؛ بل أرى أنه بفضل فيوض هؤلاء المشايخ ذوي الضمائر المنيرة وإرثهم المتروك أنه من المشاهد في هذه المؤسسة حتى اليوم أنه في الأوضاع الخاصة وأيام الفتن لابد أن يخطر بقلوب المسؤولين أمر عزل هذا القبيل من الطلاب والعاملين وتعيينهم. ورغم أن ذلك يبدو على خلاف الأسباب والتدابير، إلا أن النتائج تتجلى بوجه أحسن من الله تعالى. ويندرج تحته قصص كثيرة. فمن المتوقع أن روح الإشارات الغيبية التي خلفها السلف، تعمل عملها في هذه المؤسسة، ولازالت تعمل عملها ليومنا هذا. فلله الحمد.

سـمعت مـن مـشايخي أنـه بمناسـبة التـشاور حـول تعيـين مولانـا الحـافظ محمـد أحمـد- خـامس رؤسـاء دارالعلـوم- ظهـرت آراء مختلفـة عـلى سـبيل التشاور كالمعتاد، ثم إن مولانا الكنكوهي قال - كما يـذكر المولـوي محمـود الرامفـوري عـضو المجلـس الاستـشاري لـدارالعلوم /ديوبنـد- قـال: اسـتفتيت ربي في هـذا الأمـر ثلاثًـا، ولم يظهـر في شيء منهـا إلا اسـم الحـافظ أحمـد، بـأن المدرسـة لاتـشهد الرقـي إلا عـلى يـده، فهـل نعتـبر ذلـك إلا إشـارةً مـن الغيـب؟ وغـير خـافٍ عـلي أنـه لـيس مـن أسـلوب الأمـور التاريخيـة، ولكـن مـن الـصعوبة بمكـان أن نفـصِل تاريخ دارالعلوم عن الوجدانيات في حين أن أسسها قـد سرت فيهـا هـذه الـروح الاعتقاديـة. فلاجـرم أن تكـون عظمـة التـأريخ توأمًـا للعواطـف العقديـة في القلوب، مما لايسع فصله عن تأريخه. وأما لو كان هؤلاء الأسلاف مجرد علماء، لأمكن القول بأن هذه الأمور في غير محلها في حقها، وأما إذ كانوا عارفين بالله تعالى وأصحاب الكشف والكرامات، فإن هذه الأمـور لابـد أن تكـون في الطليعـة في التـاريخ. ومـن هنـا كـان المـستفيدون منهـا الـذين يطلـق علـيهم «خريجو ديوبند» وإن لم يكونوا على تنظيم رسمي مع مؤسستهم إلا أن القلوب تعانق القلوب والأرواح تعـانق الأرواح بـصورة لا تتـأتى مثـل هـذه العلاقـة بـسبب التنظـيم الرسـمي في العـادة. ولـو أنـه تـم إحداث التنظيم الرسمي – الذي يجري على الألسنة في المعتـاد - فلامـانع مـن إفادتـه ونفعـه، ولكـن هـذه المؤسسة الإلهامية لاينفع ولا يؤثر فيها بدون هـذه الـروح، فـإن أصـل طبيعتهـا الـروح، لا الرسـوم والطقـوس، هـي الحقيقـة لا الريـاء والتظـاهر، هـي الإخفاء لا الإعلان، وهي المعنوية لا مجرد التصوير، وإن كنا لانرفض الصورة تبعًا.

وإنـما أوردت بعـض هـذه الأحـداث لتـتجلى أصالتها ومعنويتها وحقيقتها مع تاريخ دارالعلوم، ويتـضح أن دارالعلـوم ليـست عبـارةً عـن مجـرد بنـاء ممدود على قطعة من الأرض طويلة عريضة، أو عن قيام نظامها على عشرات الشعب والأقسام، أو عن أن طاقمها يتجاوز المئات، أو عن أن فيها كثيرًا من المكاتـب، أو عـن أن فيهـا حـشودًا مـن الطـلاب، وتشكل محورًا ومركزًا لعدد كبير من الطلاب ونحو ذلك.

فـإذا تـضمنت هـذه الأشـياءَ وهـي مـستلزمات لهـا، فإنهـا ترجـع إلى صـورتها، لا إلى حقيقتهـا، وأمـا حقيقتها وماهيتها فإن حقائقها المعنوية هي القوى الغيبيـة التـي تـسري في فكرتهـا الأساسـية وهـدفها الأســاسي، واتجاههــا الــديني، وهــدف نــشأتها وتأسيسها، كما تسري فيها النسبة المتصلة بأصحاب

القلوب وأرباب الروحانية المتواصلة. وتنتقل من الروح إلى الروح، ومن القلب إلى القلب، فصارت هذه المؤسسة مجموعة ألوان نِسَبِ كبار أهل الله وولاياتهم، وأصبحت دائرةً مركزيةً لم تضم هذه الفروع المختلفة من العلم والأخلاق بمجرد النقوش السوداء من الكتب؛ بل ضمت مالايحصى من همم أرباب القلوب، ومن تصرفات من لايحصون من السلف والخلف الصالح، وصارت مجموعة الأنوار والبركات. فلو لخصنا جامعية وشمول هذه النسب بالألفاظ، لأمكن عرض هذا المذهب وأصحابه بأن نقول: كما أن مذهب هذه المؤسسة جامع شامل للعلم والمعرفة وجامع للعقل والعشق، وجامع للعمل والأخلاق، وجامع للديانة والسياسة، وجامع للرواية والدراية، وجامع للخلوة والجلوة، وجامع للعبادة والمدنية، وجامع للأسرار والحكمة، وجامع للصحو والسكر، وجامع للجذب والسلوك، وجامع للحال والقال، وجامع للظاهر والباطن، كذلك السالكون في هذا المذهب يجمعون – على تفاوت في الدرجات والمنازل- بين هذه النِسَب، ممن يتربون في جوها ويتخرجون منها. ونظرًا إلى هذه النِسب المذهبية ساغ لنا أن نقول: إنهم جماعة مسلمة أصلًا، وأحناف مذهبًا، وصوفية مشربًا، وأشاعرة كلامًا، وجشتيةً ونقشبنديةً سلوكًا، وأتباع ولي الله فكرًا، وقاسميون برهانًا وعيانًا ومكتبيًا، ورشيديون تفقهًا، ومحموديون اجتماعًا، وديوبنديون نظرًا إلى النسبة المركزية، التي لاتنحصر في دائرة المدرسة؛ بل يدخل فيها جميع المدارس، ومؤسساتها وأوساطها العلمية والعملية، التي تنتشر في طول البلاد وعرضها، والناشطة في نشر الدين والتعليم والدعوة بمختلف صورها وألوانها. والحاصل أنه نظرًا إلى هذه النسب المختلفة تمتاز هذه الجماعة بالجمع بين العلم والعمل، وسعة النظر، واستنارة الضمير، و خدمة الدين والملة والوطن بالتسامح. ولكن تحتل قضية التعليم أهميةً أكبر بين شعب الحياة كلها هذه. ولاتتحقق هذه الشعب الحياتية حق التحقق إلا في ضوء العلم، وهذه الناحية هي التي أبرزها ليومنا هذا، التي تجلت فيها هذه الجامعية والشمول. و تمثلت حقائقها في مختلف الصور و الأشكال، وبرزت وتبرز للعالم. وهذه الحقائق هي التي تمثلت في هذه المظاهر التي نقدمها باسم «تاريخ دارالعلوم». فتاريخ دارالعلوم هذا يجب تدوينه؛ فإنه لاقيام للروح في هذه الدنيا إلا بالجسم، فلايمكن غض الطرف عن الجسم وأحوالها و عوارضها؛ بل لابد منها نظرًا إلى آلاف المصالح؛ فإن هذه الحقائق التاريخية، وقصص السلف مثمرة و تحمل في طياتها

عبرًا، وهدىً ورحمةً لما قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

فلامحيص عن تقديم صورة لتأسيسها، وتعميرها، وإدارتها، ومنهجيتها، وشخصياته الموقرة، و مقرراتها الدراسية ومنهجها التعليمي، وأبرز خريجيها، وأعضاء مجلسها الاستشاري، ومسؤوليها، وما يتعلق بها من أحداث وقصص، مما يسمى «التاريخ». وكنت أنا بدوري تحدثني نفسي من قديم الزمان بأن تدون في ضوء التاريخ هذه الأمور، وخاصةً أن يتجلى فيه تدوين الأحداث في هذه العناوين الثلاثة: مؤسس دارالعلوم، ترجمة مؤسسها، وتاريخها. وأما مؤسس دارالعلوم فقد نشرت مقالة ضافية حولها.

وسبق أن قام – بإيعاز من كاتب هذه السطور- مولانا مناظر أحسن الكيلاني رحمه الله باستكمال ترجمة مؤسس دارالعلوم في ثلاثة مجلدات سماها «سوانح قاسمي»، كما قام بها مولانا أنوارالحسن الشير كوتي في مجلدين، وقد نشرت هذه الترجمة. وقام عدد من الناس بمعالجة عناصرها الضرورية، وقد نشرت في مقالات.

وأما تاريخ دارالعلوم، فكان قلبي يحدثني أن أقوم بترتيبه، ولكنه في حاجة إلى تصفح الأوراق، و تفريغ الأوقات وتفريغ القلب، مما لايتيسر لي نظرًا إلى الأشغال المنتشرة في إدارة دارالعلوم، و لكنه رغم ذلك تجسد بصورة أو أخرى؛ لأنه كان داعية القلب. وكنت أشغل منصب نائب رئيس دارالعلوم قبل عام ١٣٤٨هـ الذي توليت فيه إدارة دارالعلوم، ودونت تقريرًا عن دارالعلوم ممتدًا على (٦٧) عامًا، وهو وإن لم يكن تاريخًا لدارالعلوم؛ لكنه يشكل خطوطًا رئيسةً في ذلك. وكنت طلبت لأجل ذلك اجتماعًا في رحاب دارالعلوم، استدعي له شخصيات محلية ووافدة، وانعقد هذا الاجتماع برئاسة الشيخ ضياء الحق الرامفوري – عضو المجلس الاستشاري – وعرِض عليه هذا التقرير، وجاء في موقعه مؤثرًا ونافعًا، ثم أصدر كاتب هذه السطور من دارالعلوم جريدةً غير عادية سماها «آئينه دارالعلوم»، على كل ثلاثة أشهر، وكانت تضم بعض الأحوال السنوية والتاريخية. وتمثل ذلك- علاوةً على النفع الأخلاقي- النفع المالي من زيادة سقف التبرعات، واستلمنا في ذلك رسائل وازدادت التبرعات بصورةٍ مستمرةٍ. وفي عام ١٣٨٥هـ جاء تدوين بعض الأوراق الكلية والأصولية تخص الشؤون الإدارية والتعليمية وما

يخصها من أحوال ونشرت في كتاب، قام به المكتب باسم «تاريخ دارالعلوم»، ولم يكن تاريخها في الواقع، وإنما هو تعريف بها، ولكنه كان في صورة عامة ومبدئية بعيدًا عن الأحوال السنوية، تحمل بعض الأمثلة تحت العناوين الأساسية، ولم يتوخ الاستقصاء والاستيعاب. وعلى كل تحقق ذلك كله، وأما جانب تاريخ دارالعلوم فما زال متعطشًا يشكو الفراغ، وكانت الحاجة ماسةً إليه بشدة. ودرس المجلس الاستشاري هذه القضية، فأدركوا الحاجة إليه ولم يختلف فيه أحد. ووقع الاختيار على أخينا المحترم السيد محبوب الرضوي – ناظر مكتبة دارالعلوم/ديوبند – لتدوين تاريخها نظرًا إلى شموله وأهميته. وهو مفطور على العلاقة مع التاريخ ومناسبة خاصة مع الفن. وله سليقة فطرية لتدوين التاريخ. وهو الذي يُرجع إليه في دارالعلوم إذا ما طرح سؤال تاريخي نفسه، فيقوم بذلك على أحسن وجه وأكمله، فكان اختياره لتدوين تاريخ دارالعلوم أنسب وأوقع في موقعه، فبذل الأخ الرضوي ليله ونهاره في تدوين تاريخ دارالعلوم. ومن الحقائق التي لاتجحد أنه راعى في تدوين التاريخ أحسن الترتيب، وجمع المواد الضرورية، بالإضافة إلى العناية بالإحالات اللازمة وسرد القصص تحت العناوين الشاملة على الأسلوب التاريخي، واستعراض المعاملات. ففَصَّل ما احتاج إلى التفصيل، و أجمل ما احتاج إلى الإجمال، فأجاد وأفاد.

ورتب الأحداث ترتيبًا حسنًا، وعباراته سلسة ورائعة، وسرد الأحداث مشفوعةً بالمصادر، وهو من المتطلبات التاريخية، وتورث الطمانينة والانشراح. وهو أمر مستحسن ومبارك على جميع المقاييس، فجزاهم الله عنا خيرًا.

وأنا بدوري استفدت من هذا التاريخ، وقرأته وقلت: ما شاء الله، ولله دره، ورغب الأخ أن أكتب بعض السطور كمقدمة لكتابه، ولكنه لم يدع في التدوين مجالًا لأحد أن يعالج هذا الموضوع.

اللّٰهم إلا أني أدركت – بجانب تصوير دارالعلوم وتكييفها – الحاجة إلى أن تبرز حقيقة دارالعلوم ومعنويتها أيضًا، فما قدمه أخونا السيد الرضوي على أنه مظاهر التاريخ، هو الذي قدمته على أنه مصادر التاريخ، وأرى أن صورة دارالعلوم وحقيقتها تتجلى بصورة تلقائية بالجمع بين هذه السطور الخاصة بمعنويتها وتصوير دارالعلوم هذا، فتتجلى دار العلوم بظاهرها وباطنها، وبالله التوفيق.

محمد طيب غفرله

رئيس دارالعلوم/ديوبند

٢٢/رجب ١٣٩٦هـ

هجر النوم والراحة والدعة وسائر اللذاذات في طلب العلم

بقلم: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

من المعلوم لدى البصراء: أنه لا بُدَّ لنيلِ كل مرغوبٍ محبوب، من تنازلٍ عن مرغوبٍ محبوبٍ دُونَه، والعلمُ مرغوبٌ سامٍ، ومحبوب غالٍ، وشَرَفٌ رفيع، ومَطلَبٌ صَعْبُ المسالك، كثيرُ العَقَبات، لا يُمكنُ بُلوغُهُ إلَّا بتنازُلَاتٍ كثيرة، وتضحياتٍ كبيرةٍ، في المـال، والوقـتِ، والراحـةِ، وأُنـسِ الأهـلِ والأصحاب، وسائرِ المُتَع المشروعة؛ ولهذا قيل قديمًا: العلمُ لا يُعطِيك بعضَهُ إلا إذا أعطيتَهُ كُلَّك. وقال الإمام يحيى بنُ أبي كثير: لا يُستطاعُ العِلْم، براحَةِ الجِسْم. رواه مسلم في «صحيحه» في (باب أوقات الصلوات الخمس)[1].

نَقَل الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى، في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»[2]، عن أبي أحمد نصر بن أحمد العِيَاضي الفقيه ا لسمرقندي: «لا يَنالُ هذا العلمَ إلا من عَطَّل دُكَّانَه، وخَرَّبَ بُستانَه، وهَجَرَ إخوانَهُ، ومات أقرَبُ أهلِهِ إليه فلم يَشْهَدْ جنازتَه».

قال القاضي بدر الدين بن جماعة رحمه الله تعالى، في كتابه «تذكرة السامع والمتكلم بآداب العالم والمتعلِّم»[3]، بعدَ نقلِهِ ما حكاه الخطيب: «وهذا كلُّه وإن كانت فيه مبالغة، فالمقصودُ به أنه لا بُدَّ فيه من جَمْعِ القلب، واجتماع الفِكْر. وقيل: أمَرَ بعضُ المشايخ طالِبًا له، بنحوِ ما رواه الخطيب، فكان آخِرَ ما أمَرَه به أن قال: اصْبُغْ ثوبَك كيلا يَشغَلَك فِكْرُ غَسْلِهِ». انتهى.

وجاء في «تذكرة الحفاظ»[4]، في ترجمة الإمام شعبة بن الحجاج الواسطي البصري، أحدِ أوعيةِ العلم، «قال أبو قَطَنٍ – تلميذُه –: كانت ثيابُ شعبة لونُها كالتُّرَاب». انتهى. وذلك لاشتغالِهِ بالعلم، وعدمِ تفرُّغِهِ بسبب ذلك لغَسْلِها!

وأخبارُ العلماء في هَجْرِ الدَّعَةِ واللذاذات، والانهماكِ في العلم، والترامي على أبواب الشيوخ، ومُلازمتِهم، والصبرِ على تبايُنِ طبائعِهم، والتأدُّبِ معهم، ورعايةِ راحتهم، لنيل المطلوبِ العزيز الغالي منهم: (العلم) كثيرةٌ لا تُحْصَى.

وأستهِلُّها بما جاء عن حَبْرِ الأُمَّةِ، وإمامِ الأئمة،

الصحابي الجليل عبدِ الله بن عباس، المولود سنة ٣ قَبْلَ الهجرة، والمتوفى سنة ٦٧ رضي الله عنه.

روى الحـــاكم في «المـــستدرك عـــلى الصحيحين»(٥)، وابنُ عبد البر في «جامع بيان العلم وفـضله»(٦)، والحـافظُ ابـنُ كثـير في «البدايـة والنهايـة»(٧)، في ترجمـةِ الإمـام (ابـن عبـاس): «عـن عكرمة قال: قال ابنُ عباس: لمَّا قُبِضَ رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأنا شابٌّ قلتُ لشابٍّ من الأنصار: هلُمَّ فلنسألْ أصحابَ رسول الله، ولْنَتَعَلَّمْ منهم، فإنهم اليومَ كثيرٌ، فقال: يا عَجَبًا لك يا ابنَ عباس؟! أتُـرى النـاسَ يَحتـاجون إليـك، وفي النـاسِ مـن أصحاب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من فيهم؟(٨).

قال: فتَرك ذاك، وأقبلتُ أنا على المسألةِ وتتبُّعِ أصحابِ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فإن كنتُ لآتي الرجلَ في ا لحديث، يَبلُغُني أنه سَمِعَه من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فأجِدُهُ قائلًا – أي نائمًا في منتصَفِ النهار – ، فأتوسّدُ رِدائي على بابِه، تَسفِي الريحُ على وجهي التُّرَابَ حتى يَخرُج فإذا خَرَج قال: يا ابنَ عم رسول الله، ما جاء بك؟ هَلَّا أرسلتَ إليَّ فآتيَك؟ فأقولُ: لا، أنا أحقُّ أن آتيَك، بَلَغَني حديثٌ عنك أنك تُحدِّثُه عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فأحببتُ أن أسمعَه منك.

فكـان الرجـلُ بعـدَ ذلـك يَـراني – وقـد ذهـب أصـحابُ رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ واجتمَـعَ حـولي النـاسُ يَسألُوني – فيقـولُ: هـذا الفتـى كـان أعقـلَ مني(٩). قال الحاكم عقِبَ هذا الخبر: «هذا الحديثُ أصلٌ في طلَبِ الحديثِ وتوقيرِ المحدِّث».

وقـال محمـد بـن عبـد الله الأنـصاري: حـدّثنا محمد بن عَمْرُو بن علقمة، حدَّثنا أبو سَلَمة، عن ابن عبـاس قـال: «وجـدتُ عامَّـةَ عِلـمِ رسـول الله ﷺ عنـد هـذا الحـيّ مـن الأنـصار، إنْ كنـتُ لأَقِيلُ ببـابِ أحدِهم، ولو شِئتُ أن يُؤذَنَ لي عليه لأُذِنَ لي، ولكن أبتغي بذلك طِيبَ نفسِه»(١٠).

وقال الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام»(١١)، في ترجمة التـابعي الجليـل (عُـروة بـن الـزبير) المولـود سـنة ٢٢، والمتـوفى سـنة ٩٣ رحمـه الله تعـالى: «قـال عـروة: لقـد كـان يَبلغني عـن الرجـل مـن المهـاجرين الحـديثُ، فآتِيـهِ فأجِـدُه قـد قـالَ – أي نـام أو اسـتراح وقتَ القيلولة في منزله –، فأجلِسُ على بابِه، فأسألُه عنه، يعني إذا خَرَج».

ورَوَى الـدارمي في «سـننه»(١٢)، عـن التـابعي الجليل (سعيد بن جُبَير) المولود سنة ٤٥، والمتوفى سنة ٩٥ رحمه الله تعالى: «قال: كنتُ أسِيرُ مع ابن عباس في طريق مكة ليلًا، وكان يُحدِّثُني بالحديث،

فأكتبُه في واسِطةِ الرَّحْل، حتى أُصبحَ فأكتُبَه».

وجاء في «تاريخ الإسلام» للحافظ الذهبي[١٣]، في ترجمة التابعي الجليل، الفقيه النبيل (عطاء بن أبي رَبَاح اليماني ثم المكي)، المولود بالجَنَدِ من اليَمَن سنة ٢٧، والمتوفى بمكة المكرمة سنة ١١٥ رحمه الله تعالى، وكان من ساداتِ التابعين فِقهًا وعلمًا، وورعًا وفضلًا وإتقانًا:

«قال ابن جُرَيج: كان المسجدُ فِراشَ عطاءٍ عشرين سنةً! وقال إسماعيل بن أمية: كان عطاءٌ يُطيل الصمت، فإذا تكلَّم خُيِّلَ إلينا أنه مؤيَّد – أي تُمِدُّه الملائكةُ بما يقول –. وكان أسوَدَ، أعوَرَ، أفطَسَ، أشَلَّ، أعرَجَ، ثم عَمِي! – ففي جِسمِهِ ستةُ عيوب، ولكنه كان رُكنًا من أركان العلم والدين والصلاح والقُدْوَة –. وكان ثِقةً فقيهًا، حَجَّ نَيِّفًا – أي زيادةً – على سبعين حجَّة».

قال الدارمي في «سننه»[١٤]، في (باب مذاكرة العلم): «أخبرنا مروانُ بن محمد، قال: سمعتُ الليثَ بن سَعْدٍ يقول: تذاكر محمد بن شهاب الزهريُّ – الحافظ المحدِّث الفقيهُ التابعيُّ الجليلُ عالمُ الحجاز، المولود سنة ٥٨، والمتوفى سنة ١٢٤ رحمه الله تعالى – ليلةً بعدَ العِشاءِ حديثًا، وهو جالسٌ متوضىء، فما زال ذلك مجلسُهُ حتى أصبح، قال مَرْوَانُ: جَعَل يَتذاكَرُ الحديث».

وجاء في «تاريخ الإسلام» و«تذكرة الحفاظ»[١٥]، في ترجمة (مُغيرة بن مِقْسَم الضبِّي): «الفقيهُ الحافظُ أحَدُ الأعلام، أبو هشام مُغيرةُ بن مِقْسَم الضَّبِّي الكوفي، الأعمى، مات سنة ١٣٣. تفقَّه بإبراهيم النَّخَعي وبالشَّعْبي ورَوَى عنهما وعن غيرهما. قال فُضَيْل بن غَزْوان: كنا نجلِسُ أنا ومغيرةُ – وعَدَّدَ ناسًا – نتذاكرُ الفقه، فربما لم نَقُم حتى نَسمَعَ النداءَ بصلاةِ الفجر».

وروى الحافظ أبو خَيْثَمة النَّسائي في «كتاب العلم»[١٦]، والدارميُّ في «سننه» في (باب مذاكرة العلم)[١٧]، والحافظُ ابن حجر في «تهذيب التهذيب»[١٨]، في ترجمة (عبد الله بن شُبْرُمَة) القاضي الفقيه الكوفي التابعي، المولود سنة ٧٢، والمتوفى سنة ١٤٤ رحمه الله تعالى:

«عن الفُضَيل بن غَزْوان الضَّبِّي الكوفي قال: كنا نَجلِسُ – أنا وعبدُ الله بن شُبْرُمَة والحارثُ بن يزيدَ العُكْلِي والمغيرةُ بنَ مِقسَم الضَّبِّي والقَعْقَاعُ بنُ يزيدَ – بالليل، نتذاكرُ الفقه، فربما لم نقم حتى نَسمَعَ النداءَ لصلاة الفجر. وفي رواية: فلم يُفرِّق بينهم إلا أذانُ الصبح».

وقال ا لحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[١٩]،

و«ميزان الاعتدال»[٢٠]، في ترجمة العالم العابد (إسماعيل بن عَيّاش الحمصي) المولود سنة ١٠٦، والمتوفى سنة ١٨١ رحمه الله تعالى: «قال أبو اليَمَان – هو عامرُ بن عبد الله الحمصي –: كان إسماعيلُ جارَنا، منزلُهُ إلى جنب منزلي، فكان يُحْيِي الليل، وربما قرأ ثم قَطَع ثم رَجَع.

فسألته يومًا عن ذلك؟ فقال: وما سؤالك؟ قلتُ: أُريدُ أن أعرِفَ، قال: إني أُصلِّي فأقرأ، فأَذكُرُ الحديث في الباب من الأبواب التي أخرجتُها، فأقطَعُ الصلاة – أي أُمسِكُ عنها – فأكتُبُه، ثم أرجعُ إلى صلاتي».

وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[٢١]، في ترجمة الإمام عبد الله بن المبارك، المولد سنة ١١٨، والمتوفى سنة ١٨١ رحمه الله تعالى: «قال علي ابن الحسن بن شقيق: قُمتُ مع عبد الله بن المبارك في ليلة باردة، ليَخرج من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديثٍ وذاكرتُه، فما زال يذاكرني حتى جاء المؤذِّن فأذَّن للفجر».

وقال القاضي عياض في «ترتيب المدارك»[٢٢]، في ترجمة (عبد الرحمن بن قاسم العُتَقي المصري)، أحدِ أصحاب مالك والليث وغيرهما، المولود سنة ١٣٢ والمتوفى بمصر سنة ١٩١ رحمه الله تعالى: «قال ابن القاسم: كنتُ آتي مالكًا غَلَسًا فأسأله عن مسألتين، ثلاثةٍ، أربعةٍ، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراحَ صدر، فكنتُ آتي كلَّ سحر.

فتوسّدتُ مرَّةً عَتَبَتَهُ، فغلبتني عيني فنِمت، وخرَجَ مالك إلى المسجد ولم أشعر به، فركضتني جاريةٌ سوداء له برِجْلِها، وقالت لي: إنَّ مولاك قد خَرَج، ليس يَغفُلُ كما تَغفُلُ أنت، اليومَ له تِسعٌ وأربعون سنةً، قلَّما صلَّى الصبحَ إلا بوضوء العتَمَة – ظنَّت السوداءُ أنه مولاه من كثرةِ اختلافِهِ إليه –.

قال ابن القاسم: وأنختُ بباب مالك سَبْعَ عَشْرَةَ سنةً، ما بعتُ فيها ولا اشتريتُ شيئًا، قال: فبينما أنا عنده، إذ أقبَلَ حاجُّ مصر، فإذا شابٌ متلثِّم دخل علينا، فسلّم على مالك، فقال: أفيكم ابنُ القاسم؟ فأُشيرَ إليّ، فأقبل يُقَبِّلُ عيني، ووجدتُ منه ريحًا طيبةً، فإذا هي رائحةُ الوَلَد، وإذا هو ابني، وكان ابنُ القاسم تَرَك أُمَّهُ حامِلاً به، وكانت ابنةَ عَمِّه، وقد خيَّرها عند سفره لطولِ إقامته، فاختارت البقاء».

وجاء في «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي[٢٣]، و«تاريخ الإسلام» للذهبي[٢٤]، و«طبقات الشافعية الكبرى» للتاج السبكي[٢٥]، في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل: «قال قتيبة بن سعيد:

كان وكيعُ – بنُ الجراح المولود سنة ١٢٩، والمتوفى سنة ١٩٧ رحمه الله تعالى – إذا صلّى العَتَمَة ينصرف معَهُ أحمد بن حنبل، فيقف على الباب فيذاكره وكيع. – ووكيعُ من شيوخ أحمد –.

فأخَذَ وكيعٌ ليلةً بعِضَادَتَيْ الباب، ثم قال: يا أبا عبد الله، أُريد أن أُلقِيَ عليك حديثَ سفيان، قال: هاتِ، قال: تَحفَظُ عن سفيان، عن سَلَمة بن كُهَيْل كذا وكذا؟ قال: نعم، حدثنا يحيى...، فيقول – أي وكيعٌ: تَحفظُ عن سلمة: كذا وكذا؟ فيقول: حدثنا عبد الرحمن ...، فيقول – أي وكيعٌ –: عن سَلَمة كذا وكذا؟ فيقول: أنت حدثتنا، حتى يَفرُغَ من سَلَمَة.

ثم يقول أحمد:فتَحفَظُ عن سَلَمة كذا وكذا؟ فيقول وكيع: لا، فلا يزال يُلقي عليه ويقول وكيعٌ: لا، ثم يأخُذُ في حديثِ شيخ شيخ.

قال: فلم يزل قائمًا حتى جاءت الجارية، فقالت: قد طَلَع الكوكب، أو قالت: الزُّهَرَة».

وقال العلامة الشيخ محمد مخلوف المالكي رحمه الله تعالى، في «شجرة النور الزكيَّة في طبقات المالكية»[٢٦]، في ترجمة الإمام الهُمام (أسَد بن الفُرَات)، النيسابوريِّ الأصل والنِّجَار، المولودِ بحَرَّان سنة ١٤٢، والمتوفى شهيدًا مجاهدًا في جزيرة صقِلِّيَّةَ من إيطاليا سنة ٢١٣ رحمه الله تعالى، العالم الرحَّال بين المشرق والمغرب، الفقيه المحدِّث النبيل، القاضي الغازي الجليل، ما يلي:

«رحل به والدُهُ وعُمرُه عامانِ، مع الجُنْدِ العربيّ بقيادة ابن الأشعث، ودخَل معه القيْرَوَان سنة ١٤٦، ثم دخل تونس وانقطع لقراءةِ القرآنِ وعلومِه، ورَوَى «المُوطَّأ» عن ابن زياد، وفي الثامن عشر من عمره رَحَل للمشرق، وأقام بالمدينة مدةً، وأعاد روايةَ «الموطَّأ» على مالك.

ثم رَحَل للعراق ولَقِيَ أعلامًا من أصحاب أبي حنيفة، منهم الإمامانِ: أبويوسف ومحمدُ بن الحسن، وأَخَذ عنهما عِلْمًا غزيرًا، ثم رَحَل لمصر ولَقِي جماعةً من أعيان العلماء، منهم الإمامُ عبدُ الرحمن بن القاسم فلزِمَه مدةً، وهناك ألَّفَ «الأَسَدِيَّة».

ثم قَفَل راجعًا إلى القيروان، وبها انتَشَر ذكرُه وظَهَر علمُه وارتفع قَدْرُه، وفي سنة ٢١٢ جَمَع الأميرُ زيادةُ اللهِ الأغلَبيُّ جُيُوشَهُ وأُسْطُولَهُ لغَزْوِ صِقِلِّيَّة، وكان أميرُ الجيش وقاضيهِ أَسَدَ بن الفُرَات المذكور، فخَرَج في حَفْلٍ عظيم وجَمْعٍ فَخِيْم، من أهلِ العلم ووجوهِ الناسِ لمُشَايَعَتِه.

ولمَّا رأى أَسَدٌ الناسَ خاصَّتَهم وعامَّتَهم بين

يديه وخَلْفَهُ، قال لهم بعدَ حَمْدِ الله: لا إله إلا اللهُ وحدَهُ لا شَرِيكَ له، يا معشرَ الناس، واللهِ ما وَلِيَ لي أبٌ ولا جَدٌّ وِلايَةً قَطُّ، ولا أحَدٌ من سَلَفي رَأَى هذا قَطُّ، وما رأيتُ ما تَرَوْن إلَّا بالأَقْلَام – يعني بتعلُّم العِلْم وتحصيلِه وكتابتِه وخِدْمتِه –، فأَجْهِدُوا أنفسَكم، وأَتْعِبُوا أبدانَكم في طَلَبِ العلم وتدوينِهِ، واصْبِرُوا على شِدَّتِهِ، فإنكم تنالون به خيرَيْ الدنيا والآخرة.

وهذا الاحتفالُ انتهى بمَرْسَى سُوْسَة، ومنها أَقلَع الأُسطولُ قاصِدًا صِقِلِّيَّةً، ودَخَلها بعدَ مُكابَدةِ مَشَاقَّ! وحَصَل له فَتْحٌ عظيمٌ بها، ومات إِثْرَ جِراحَاتٍ في حِصَارِ سَرْقُوسَة، دُفِنَ بذلك الموضعِ رحمه الله تعالى».

قال عبد الفتاح: أنا أدعو كلَّ طالبِ علمٍ نبيلٍ هُمَامٍ وهَمَّام، وأرجو منه أن يَقرأ ترجمةَ الإمامِ (أَسَدِ بن الفُرَات) هذا[٢٧]، ففيها يقفُ على مآثِرَ متنوِّعةٍ له ولشيوخِه، في العلم، والنَّبلِ، والكياسةِ، والأدب، والشجاعة، والاستبسالِ، والاستشهاد، والتقوى، والتواضع، وتحمُّل المشاقِّ في تحصل العلم والمَكَارم، فهي ترجمةٌ نابِضَةٌ حافِزةٌ، لا يَشبَعُ من قرأها من قِراءتِها.

وقال شيخنا الإمام الكوثري رحمه الله تعالى، في كتابه «بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني»[٢٨].

«كان أَسَدُ بن الفُرات، – قاضي القيروان وتلميذُ الإمام مالك ومُدوِّنُ مذهبِه، وأحَدُ القادةِ الفاتحين، فتَحَ صِقِلِّيَّةَ واستُشهدَ بها سنة ٢١٣ – كان قد خَرَج من القيروان إلى الشرق سنة ١٧٢، فسَمِعَ «الموطّأ» على مالك بالمدينة، ثم رَحَل إلى العراق، فسَمِعَ من أصحاب أبي حنيفة وتفقَّه عليهم، وكان أكثَرُ اختلافه إلى محمد بن الحسن الشيباني.

ولما حضَرَ عنده قال له: إني غريب قليلُ النفقة، والسماعُ منك نَزْر، والطلبةُ عندك كثير، فما حيلتي؟ فقال له محمد بن الحسن: اسمَعْ مع العراقِيِّين بالنهار، وقد جلعتُ لك الليلَ وحدَك، فتَبِيتُ عندي وأُسمِعُك، قال أسد: وكنتُ أَبِيتُ عنده ويَنزلُ إليّ، ويَجعلُ بين يديه قَدَحًا فيه الماء، ثم يأخذُ في القراءة، فإذا طال الليلُ ونَعَسْتُ، ملأ يَدَهُ ونَضَح وجهي بالماء فأَنْتَبِهُ، فكان ذلك دأبَه ودأبي، حتى أتيتُ على ما أُريدُ من السماعِ عليه.

وكان محمد بن الحسن يتعهده بالنفقة حين علم أن نفقته نَفِدَتْ، وأعطاه مَرةً ثمانين دينارًا حين رآه يَشرَبُ من ماءِ السبيل، وأمَدَّه بالنفقة حين أراد الانصراف من العراق». انتهى بتصرف يسير.

وجـــاء في «ترتيـــب المـــدارك» للقـــاضي عياض[٢٩]، في ترجمة الإمام (عبدالملك بن حبيب الأندلسي القرطبي) عالِم الأندلس، المولود سنة ١٧٤، والمتوفى سنة ٢٣٨ رحمه الله تعالى:

«قال أبو عُمَرَ يوسف بن يحيى المَغَامِي – تلميذُه –: طَرَقتُ عبدَ الملك بن حبيب يومًا بغَلَس، حِرْصًا على الاقتباس منه، واستأذنتُ عليه، فأذِنَ لي ودَخلتُ، فإذا به جالسٌ في مجلسه، عاكفٌ على الكتب، قد أحاطَتْ به يَنظُرُ فيها، والشمعةُ بين يديه تَقِدُ، وطَوِيلةٌ عليه – أي على رأسِهِ قَلَنْسُوَة طويلة –.

فسلَّمتُ فرَدَّ عليَّ وقال لي: يا يوسف، أَوَقد انسلَخَ الليلُ؟ قلتُ: نعم وقد صلينا، فقام إلى صلاةِ الصبح فصلَّاها، ثم رجع إلى مقعده، وقال: يا يوسف، ما صلَّيتُ هذه الصلاةَ إلا بوضوءِ العشاءِ الآخِرة».

* * *

الهوامش:

(١) ٥:١١٣.

(٢) ٢:١٧٤.

(٣) ص ٧١.

(٤) ١:١٩٤.

(٥) ١:١٦٠.

(٦) ١:٨٥.

(٧) ٨:٢٩٨.

(٨) يعني: في الناس كثرةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، الذين عاشروه وسمعوا منه، فلا يَحتاجُ الناسُ إلى مثلِك مع وجود أولئك الأصحاب، فطلبُك للعلم لا يَنتفعُ به الناس، لاستغنائهم عنك بالعلماء الكبار.

(٩) وكان عبدُ الله بن عباس رضي الله عنه لا يَفْتُرُ عن كتابةِ العلمِ وتحصيلِه، حَدَّثَ الفضلُ بن محمد، عن أبيه، عن جده، قال: قيل لعبد الله بن عباس: كَمْ تكتُبُ العلمَ؟! قال: إذا نَشِطتُ فهو لَذَّتي، وإذا اغتَمَمْتُ فهو سَلْوَتي. رواه المؤرِّخُ ابنُ العَدِيم الحلبي في «تاريخ حلب»، في ترجمة (نِظَام المُلْك).

(١٠) ورواه أبو خَيْثَمة النسائي في «كتاب العلم» ص ١٤١.

(١١) ٤:٣٢.

(١٢) ١:١٠٥.

(١٣) ٤:٢٧٩.

(١٤) ١:١٢١.

(١٥) في «تاريخ الإسلام» ٥:٣٠٢، و«تذكرة الحفاظ» ١:١٤٣.

(١٦) ص ١٣٥.

(١٧) ١:١٢٠.

(١٨) ٥:٢٥٠ و ٨:٢٩٧.

(١٩) ١:٢٥٣.

(٢٠) ١:٢٤٠.

(٢١) ١:٢٧٧.

(٢٢) ٣:٢٥٠.

(٢٣) ص ٦١.

(٢٤) في ترجمة الإمام أحمد المنقولة عن «تاريخ الإسلام» في أول «المسند» له، بتحقيق شيخنا أحمد شاكر رحمه الله تعالى ص٦٣.

(٢٥) ٢:٢٨ من الطبعة المحققة.

(٢٦) ص ٦٢ من الكتاب وص ١١٩ من التنمة في آخره.

(٢٧) في كتاب «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ٣:٢٩١-٣٠٩ من طبعة المغرب، أو ٢:٤٦٥-٤٨٠ من طبعة بيروت، أو «رياض النفوس» لأبي بكر المالكي ١:١٧٢-١٨٩، أو غيرها من المصادر الواسعةِ التي تَرْجَمَتْ له رحمه الله تعالى.

(٢٨) ص ١٥.

(٢٩) ٣:٤٤.

* * *

قضية خلق القرآن بين صالح بن المنصور الهاشمي والمهتدي باللّه أمير المؤمنين

بقلم: الدكتور عبد الرحمن عميرة

قال صالح بن علي: حضرت مجلس المهتدي بالله[1] أمير المؤمنين وقد جلس ينظر في أمور الناس في دار العامة، فنظرت إلى مصالح الناس تقرأ عليه من أولها إلى آخرها، فيأمر بالتوقيع بها، وإنشاء الكتب لأصحابها فتختم وتدفع إلى أصحابها بين يديه فسرني ذلك.

وجعلت أنظر إليه ففطن لي ونظر إليَّ فغضضت عنه، حتى كان ذلك مني ومنه مرارًا، إذا نظر إليَّ فغضضت، وإذا اشتغل عني نظرت.

فقال: يا صالح.

قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، وقمت قائمًا.

فقال: أفي نفسك مني شيء تحب أن تقوله..؟

فقلت له: نعم يا سيدي.

فقال لي: عد إلى موضعك. فعدت وعاد في النظر حتى قام وقال للحاجب: لا يبرح صالح، فانصرف الناس، ثم أذن لي، وقد أهمتني نفسي، فقمت فدخلت، ودعوت له فقال لي: اجلس. فجلست.

فقال: يا صالح، تقول ما دار في نفسك أو أقول أنا ما دار في نفسي، إنه دار في نفسي ما دار في نفسك!!

فقلت يا أمير المؤمنين، ما تعزم عليه وتأمر به أطال الله بقاءك.

فقال: كأني بك وقد استحسنت ما رأيت مني

فقلت: أي خليفة خليفتنا إن لم يكن يقول القرآن مخلوق..؟؟

فورد على قلبي أمر عظيم وأهمتني نفسي ثم قلت هل تموتين إلا مرةً، وهل تموتين قبل أجلك وهل يجوز الكذب في جد أو هزل..؟

فقلت: والله يا أمير المؤمنين، ما دار في نفسي إلا ما قلت.

ثم أطرق مليًا وقال:

ويحك اسمع مني ما أقول فوالله لتسمعن الحق، فسري عني.

فقلت: يا سيدي، من أولى بقول الحق منك، وأنت أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، وابن عم سيد المرسلين من الأولين والآخرين.

فقال لي: ما زلت أقول القرآن مخلوق صدرًا من خلافة الواثق[٢] حتى أقدم علينا أحمد[٣] بن أبي داود شيخًا من أهل ا لشام من أهل أدنه، فأدخل الشيخ على الواثق مقيدًا، وهو جميل الوجه، تام القامة حسن الشيبة فرأيت الواثق قد استحيا منه ورق له، فما زال يدنيه ويقربه حتى قرب منه، فسلم الشيخ بأحسن السلام، ودعا بأبلغ الدعاء وأوجز.

فقال له الواثق: اجلس. ثم قال له:

«يا شيخ ناظر ابن أبي داود على ما يناظرك عليه».

قال الشيخ: يا أمير المؤمنين، إن ابن داود يقل ويصغر ويضعف عن المناظرة.؟؟

فغضب الواثق وعاد مكان الرقة له غضبًا.

فقال: أبو عبد الله ابن أبي داود يقل ويصغر ويضعف عن مناظرتك أنت..؟

فقال الشيخ: هون عليك يا أمير المؤمنين، ما بك وائذن لي في مناظرته.

فقال الواثق: ما دعوتك إلا للمناظرة.

فقال الشيخ: يا أحمد بن أبي داود إلام دعوت الناس ودعوتني إليه..؟

فقال: إلى أن تقول القرآن مخلوق؛ لأن كل شيء من دون الله مخلوق.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، إني رأيت أن تحفظ عليَّ وعليه ما نقول:

قال: أفعل.

فقال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه أواجبة داخلة في عداد الدين، فلا يكون الدين كاملًا حتى يقال فيه ما قلت..؟

قال: نعم.

قال: الشيخ: يا أحمد أخبرني عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حين بعثه الله عز وجل هل ستر شيئًا مما أمره الله به في دينه..؟

قال: لا.

قال الشيخ: فدعا رسول الله -ﷺ- الناس إلى مقالتك هذه..؟

فسكت ابن أبي داود.

فقال الشيخ له: تكلم فسكت.

فالتفت الشيخ إلى الواثق وقال: يا أمير المؤمنين واحدة.

فقال الواثق: واحدة.

فقال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن آخر ما أنزل الله من القرآن على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(٤).

فقال الشيخ: أكان الله تبارك وتعالى الصادق في إكمال دينه أم أنت الصادق في نقصانه، فلا يكون الدين كاملًا حتى يقال فيه بمقالتك هذه..؟

فسكت ابن داود.

فقال الشيخ: أجب يا أحمد. فلم يجب..

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين: اثنتان.

فقال الواثق: اثنتان.

فقال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه أعلمها رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أم جهلها..؟

فقال ابن داود: علمها.

فقال الشيخ: أدعا الناس إليها..؟ فسكت ابن أبي داود..؟؟

فقال الشيخ: أدعا الناس إليها..؟ فسكت.

فقال الشيخ: يا أميرالمؤمنين ثلاث.

فقال الواثق(٥): ثلاث.

فقال الشيخ: يا أحمد فاتسع لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما زعمت فلم يطالب أمته بها..؟

قال: نعم.

فقال الشيخ: واتسع لأبي بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنهم -..؟

قال ابن أبي داود: نعم.

فأعرض الشيخ عنه وأقبل على الواثق فقال:

«يا أمير المؤمنين إن لم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول لله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم، فلا وسع الله على من لم يتسع له ما اتسع لهم من ذلك.

فقال الواثق: نعم إن لم يتسع لنا الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله - عليه الصلاة والسلام ولأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي - رضي الله تعالى عنهم، فلا وسَّع الله علينا.

اقطعوا قيد الشيخ.

فلما قطعوا قيده ضرب الشيخ بيده إلى القيد ليأخذه فجذبه الحداد إليه.

فقال الواثق: دع الشيخ ليأخذه.

فأخذه الشيخ فوضعه في كمه.

فقيل للشيخ: لم جاذبت عليه..؟

فقـال الـشيخ: لأني نويـت أن أتقـدم إلى مـن أوصي إليه إذا أنا مت أن يجعله بيني وبين كفني حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة، وأقول: يا رب، سل عبدك هذا لم قيدني وروَّع أهلي وولدي وإخواني بلا حق أوجب ذلك عليَّ؟

وبكى الشيخ، وبكى الواثق، وبكيت.

ثم سأله الواثق: أن يجعله في حل وسعة مما ناله منه.

فقال الشيخ: والله يا أمير المؤمنين، قد جعلتك في حـل وسـعة مـن أول يـوم إكرامًـا لرسـول الله - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - إذ كنت رجلاً من أهله.

فقال الواثق: لي إليك حاجة.

فقال الشيخ: إن كانت ممكنة فعلت.

فقال الواثق: تقيم قبلنا فينتفع بك فتياننا.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، إن ردك إياي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم أنفع لك من مقامي.

فقال الواثق: أفتقبل منا صلةً تستعين بها على دهرك..؟

فقـال الـشيخ: يـا أمـير المـؤمنين، لا تحـل لي أنـا عنها غني وذو ثروة.

فقال له: أتسأل حاجةً..؟

قال: أو تقضيها يا أمير المؤمنين..؟

قال: نعم.

قال: تخلى سبيلي إلى السفر الساعة وتأذن لي.

قال: قد أذنت لك. فسلم عليه الشيخ وخرج.

قال صالح: فقال المهتدى بالله: فرجعت عن هذه المقالة منذ ذلك اليوم، وأظن أن الواثق بالله، كان رجع عنها من ذلك الوقت.

* * *

الهوامش:

(١) هـو محمـد بـن هـارون الواثـق ابـن محمـد المعتـصم بـن هـارون الرشيد أبو عبد الله المهتدي بالله العباسي، من خلفاء الدولة العباسية، بويع له بالخلافة بعد خلع المعتز سنة ٢٥٥هـ، مدة خلافته أحد عشر شهرًا قتل عام ٢٥٦هـ.

(٢) هـو هـارون (الواثـق بـالله) ابـن محمـد (المعتـصم بـالله) ابـن هـارون الرشـيد العبـاسي، أبـو جعفـر، مـن خلفـاء الدولـة العباسية بالعراق ولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٢٧٧ فامتحن الناس في خلق القرآن، وسجن جماعةً توفي عام ٢٣٢هـ راجع البداية والنهاية ١٠:٢١٣ واليعقوبي ٣:١٣٩.

(٣) أحمـد بـن أبي داود بـن جريـر أبـو عبـد الله: أحـد القـضاة المـشهورين مـن المعتزلـة. ورأس الفتنـة بخلـق القـرآن. ولـد بالبصرة عام ١٦٠هـ وتوفى سنة ٢٤٠هـ. كان عارفًا بالأخبار والأنساب، قال الذهبي: كان جهميًا بغيضًا حمل الخلفاء على امتحان الناس بالقول بخلق القرآن.

(٤) سورة المائدة آية رقم ٣.

(٥) هـو هـارون بـن محمـد المعتـصم بـالله ابـن هـارون الرشـيد العبـاسي، أبـو جعفـر، ولى الخلافـة بعـد وفـاة أبيـه سـنة ٢٢٧ فامتحن الناس في خلق القرآن، وسجن جماعةً وقتل أحمد بن نصر الخزاعي بيده سنة ٢٣١هـ مات في سامرا سنة ٢٣٢هـ. راجع ابن الأثير ٧:١٠ والطبري ١١:٢٤.

الخشية من مظاهر الجبن

بقلم: الأستاذ/ عبد اللَّه عبد الغني خياط

تربية النفوس على الفضائل، بما في ذلك العزة، والشجاعة الأدبية، والصراحة في الحق، وعدم التهيبّ من سطوة الباطل، غرض رفيع من أغراض الدين وهدف سام يرمي إلى استكمال عوامل القوة في المسلم، فليس المسلم بالذي يرضى الدنية، أو يخفض الرأس عن ضعة وهوان حتى في أحرج المواقف، ولذلك حارب الإسلام الجُبن؛ لأنه خصلة ضعة، تفقد المرء سيطرته على نفسه، وتقعده عن مصالح دنياه وآخرته، وكان في جملة ما استعاذ منه رسول الهدى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خصال الذم والمهانة فقال: «اللّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال».

والخشية مظهر من مظاهر الجبن، وهي في إطارها الواسع، تجمع بين اتجاهين، محمود ومذموم، فالمحمود، خشية العبد من ربه، وما تحدثه في النفس من تحول إلى الخير، والصلاح، والحرص على الاستقامة، والأخذ في دروب الهداية، نتيجة لاستشعار عظمة الرب جلّ جلاله، والخوف من عقابه، وهذا النوع من الخشية، مشروع محمود، تعبد الله به العباد، ووصف به ملائكته المقربين، في معرض الثناء عليهم، فقال:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾.

ووصف بها المحسنين من عباده، توجيهًا للأنظار إلى القدوة بهم فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ ووصف بها الصفوة من العلماء فقال:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

وإلى جانب ذلك، فهي برهان على قوة الإيمان، وصدق اليقين، وعامل على الانطلاق والتحرر من الذل ونزع ربقة العبودية للمخلوق، فيغدو المسلم، حرًا طليقًا، يقول ما يعتقد، ويجاهر بالحق، لا يخشى في الله لومة لائم، يصدع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أمر الله، قيامًا بالواجب المفروض عليه كمسلم، لايخشى سطوة جبار، كما جاء في الحديث «أصدق المعروف كلمة حق عند سلطان جائر» أو كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يثنى عزيمته عن المضي في سبيل الحق، قالة الناس، وتجريحهم، وإيذاؤهم فكم أوذي في سبيل الله أناس في ذات الله قبله، لا يجامل أو يحابي على حساب دينه، قريبًا لقرابته، أو رئيسًا لسلطانه عليه، أو صديقًا لمكانته من نفسه، ولقد جاء من أخبار خيرة الخلق، رسل الله وأنبيائه، والسائرين على نهجهم، صور تحكي واقعًا، هو أرفع ما تتمثل فيه الخشية، وصدق اليقين، مما تجب فيه القدوة، وعلى سبيل المثال، نروي طرفًا من قصة الخليل إبراهيم، حين أجمع الباطل على قذفه في النار، فعرض له جبريل قائلًا:- ألك حاجة، أي يسعفه بها، وينقذه من السعير الملتهب، فأجاب الخليل إجابة الواثق بربه، الذي لاترهبه غير سطوته، بقوله: أمّا إليك فلا. وفي قصة سحَرة فرعون، عندما اتضح لهم الهدى، وآمنوا برب موسى، وتوعدهم الطاغوت فرعون، كما حكى الله عنه قائلًا:

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

فأجابوه على الفور، في شجاعة أدبية نادرة، دون تلعثم أو تردد.

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

وما لنا نذهب بعيدًا وقصة أشرف الخلق مع قومه عندما توعدوه في غزوة أحد بالاستئصال والقضاء على شوكته، والقصة في قرآن يتلى إلى الأبد، يمتدح الله مسلك الرسول وأتباعه، بكمال إيمانهم وصدق يقينهم، وعدم خشيتهم إلا من الله وحده، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ

وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

أما لو انعكس الوضع، وأصبح في الناس من يخشى الناس كخشية الله، أو أشدّ، واستبدّ ذلك بنفوسهم، حتى ضعضع ثقتهم بالله، وأضعف يقينهم، فأرضوا الناس بسخط الله وعلقّوا عليهم الآمال، وقطعوها عن الله، وكأن الأمر والتدبير، مقصور عليهم والأرزاق وقف على نفحاتهم، فعنئذ تعظم البلوى؛ إذ يخسر المسلم، أعظم مقوماته، يخسر دينه، كما جاء في الأثر «إن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه، فيلقى الرجل، وله إليه حاجة، فيقول له، أنت كيت وكيت، يثني عليه، لعلّه أن يقضي من حاجته شيئًا، فيسخط الله عليه، فيرجع وما معه من دينه شيء». ويخسر إيمانه وثقته بالله، فيغدو في مهب الريح، تعتوره الهموم ويعترض خط سيره شبح الأوهام، فيحمله على النفاق والملق، وبيع الدين والشرف والضمير، بثمن بخس، هو إرضاء الناس، وعلى المسلم أن يضع نصب عينيه، قول رب العزة:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾.

وأن يوقن بما ورد في الحديث الشريف «أن روح القدس ألقى في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» وجاء في الحديث أيضًا من الوعيد لمن ضعف يقينه بالله، واشتغل بالمخلوق عن الخالق، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى نفسه»، وفي رواية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على مالم يؤتك الله إن رزق الله لايجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره» إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية التي تربي في النفس الخشية من الله وحده والاتكال عليه والإيمان به واليقين بكفايته إلى جانب تربيتها في النفس أيضًا العزة والإباء، والشجاعة الأدبية، والثبات على المبدأ، والصراحة في قول الحق، ليعيش المسلم في مجتمعه، مرفوع الرأس، موفور الكرامة، لا يستخذي أو يستكين، أو يخفض رأسه، إلا لخالقه أو يخشى في جلب المكروه، أو إنزال الضر إلا من بيده تصريف الأمور.

* * *

الرقي في الخلق الحسن

بقلم: فضيلة الشيخ عبد المطلب صلاح

حمـدًا لمـن أدب نبيـه فأحـسن تأديبـه، وجملـه بحـسن الخلـق فأبـدع تجميلـه، وصـوره فأحـسن تـصويره، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شريـك لـه، خلـق الخلـق متفـاوتين، فمـنهم الحليم، ومـنهم الغضوب، ومنهم الشاكر، ومنهم الساخط، ومنهم البخيـل، ومـنهم الكـريم لتظهـر قـدرة الإله العـلي الحكيم، وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله دعا إلى الأخـلاق الفاضـلة والـصفات الحـسنة والخـصال الحميـدة النفيـسة، فقـال: «أكمـل المـؤمنين إيمانًـا أحسنهم خلقًـا» صـلوات الله وسـلامه عـلى سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين ضربوا المثل الأعلى في الإيمان والشرف والرجولة والبطولة أولئك هم المؤمنون حقًا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق وكريم. يقول الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ ما شهد التاريخ نهضةً لأمة أو رقيًا لشعب من الشعوب إلا وكـان سـلمها الخلـق الحـسن وطريـق نهـضتها وصلاح عزتها ما تسربلت به من الشجاعة والحلم والنبيل والطهارة والعفة والإباء والشرف، ونبذها للكبر والصلف. رائدها الأوحد، وديدنها الأرشد إنما هو الإخلاص والصدق وقول الحق ولو كان مرًا والبذل والتضحية وإنكار الذات، وما تأخرت أمة من الأمم وانحطت إلى مهاوي الرذيلة وأصبحت في أذيال الأمم وفي مؤخرة الركب؛ بل من حسالة الحسالة وفي نيران الاستعباد تتلظى، وفي جحيم الاستعمار تتأوه إلا من تركها لدينها وتبدل أحوالها وتغير أخلاقها، وتدهور شرفها وتنكرها لكرامتها ورجولتها. نريد يا مدعي الإيمان أن نعيد للإسلام مجده، وللدين عزته وكرامته، فنترسم خطا القائد الأول محمد بن عبد الله في خلقه الكريم وننسج على منوال سبيله الحكيم، ونهتدي بهديه السعيد القويم، نتأسى بخلقه في حلمه وقضائه على نفسه، حيث كان عليه السلام مديونًا لرجل يهودي، فلما حل

ميعاد الدين حضر اليهودي مملوءًا بالحمق والعتو والغرور والاستهتار، والرسول محاط بالصحابة إحاطة الهالة بالقمر والأكمام بالثمر، فابتدر اليهودي النبي بقوله: «يا بني عبد مناف، أنتم قوم مطل تسوفون في الحقوق» فلاحت على وجه عمر بن الخطاب أمارات الغيظ وعلامات الغضب، وقام من فوره يريد قتل اليهودي. فانظر يارعاك الله إلى موقف الحلم ومواطن الشرف، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل يرشده الرسول إلى الطريق السوي والهدي النبوي، والقانون السماوي، وأن الدين لله وحده، فيقول له: «يا ابن الخطاب كنت أنا واليهودي أحق منك بخير من ذلك. كنت تأمره بحسن التقاضي وتأمرني بالأداء».

فيجيبه الأعرابي وقد ذهلته تلك الأخلاق الكريمة الشيم العظيمة، والحلم الذي لايجارى ولايبارى بقوله: «أهكذا أخلاقك يا محمد، أتلك صفاتك، أدينكم الكريم السمح العفو يأمركم بهذا العطف وأنه لا عصبية في الأديان، وأن الدين لله الواحد الديان اللّهم إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأسلم اليهودي، فأي خلق يضاهي هذا الخلق، وأي حلم يماثل ويشابه هذا الحلم، إنما للآداب التي أدب الله بها نبيه وبها زانه، وامتدحه بقوله الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾. وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

فرفع يديه وقال: اللّهم أمتي، وبكى. فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد (وربك أعلم) فسأله: ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما قال (وهو أعلم) فقال الله يا جبريل: اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك.

فتأمل هذا العطف السامي الذي أبكاه. وهذا الفضل العظيم الذي منحه الله إياه، وكان عليه الصلاة والسلام يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته، ودخل الحسن وهو يصلي فركب ظهره وهو ساجد، فأبطأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سجوده حتى نزل الحسن. فلما فرغ قال له بعض أصحابه: لقد أطلت سجودك، قال: «إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله» وعن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: «مارأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ. كان إبراهيم مسترضعًا له في عوالي المدينة. فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه ليدخن – وكان ظئره[1] قينًا – فيأخذه فيقبله ثم يرجع.

وعـن أبي هريـرة أن الأقـرع بـن حـابس أبـصر النبـي ﷺ يقبل الحسن. فقال: إن لي عشرةً من الولد ما قبلت واحدًا منهم. فقال رسول الله ﷺ: «إنه من لايرحم لا يرحم» وكـان رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في بعض أسفاره وغلام أسود يقال له أنجشة يحدو فقـال لـه الرسـول ﷺ: «يـا أنجـشة رويـدك سـوقًا بـالقوارير» فكـان يغنـي للإبـل حثًا لهـا عـلى الـسير، فيأمره من طبعت نفسه الشريفة على الرحمة والشفقة بـالرفق في الـسير بالنـساء الـلاتي يـشبهن القـوارير الزجاجية في ضعفها وسرعة انكسارها. وذلك أن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي واستلذته فأزعجـت الراكـب وأتعبتـه فنهـاه عـن ذلـك؛ لأن النساء تؤذيهن شدة الحركة ويخاف سقوطهن. وهذه شـفقة عظيمـة مـن النبي ﷺ بالنساء وعطف سام عليهم. ومن تواضعه الشريف الجم ما يكون نبراسًا يستـضاء بـه ويقـضي عـلى العنجهيـة والكبريـاء والغطرسة والخيلاء والصفاقة والغلواء حينما آب النبي وأصحابه من بعض الغزوات ومعهم غنيمتهم وقـد أجهـدهم الجـوع وأضـناهم الكلـل والمـلال فجلسوا يستريحون فاستشاروا بعضًا في ذبح شاة من الشياة. فقال بعضهم: أنا يا رسول الله على ذبحها. وقال الثاني: وأنا يا رسول الله على سلخها. وقال الثالـث: وأنـا يـا رسـول الله عـلى طبخهـا. فقـال الرسـول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: وأنـا عـلى جمـع الحطـب. فقالوا: يا رسول ا لله، أنت فينا السيد الجليل والنبي العظيم، وتجمع لنا الحطب ونحن جلوس وطوع إرادتك ورهن إشارتك، فاستمع أيها المسلم لقانون المـساواة وسـبيل ا لعـدل وضرب المثـل جليًـا بأنـه لافرق بين سيد ومسود وحاكم ومحكوم وعظيم وحقير؛ بل الجميع أمام الله سواء، أبوهم آدم وأمهم حـواء لا يتفاضـلون إلا بـصالح الأعـمال ونبيـل الـصفات والخـلال. إن أكـرمكم عنـد الله أتقـاكم. فيقول: إن الله يكره عبدًا من عباده أن يكون متميزًا على إخوانه.

فتأمل هذه الأحاديث التي تسيل عطفًا وتملئ رفقًا ولطفًا، وتفيض شفقةً وحنانًا وظرفًا على الأمة جمعاء، والصبيان والنساء والخدم والبهائم العجم، ولا غرو فينبوعها سيد المرسلين الذي أرسله الله رحمةً للعالمين. فاتقوا الله أيها المؤمنون، واعملوا صالحًا لعلكم تفلحون. واقتدوا بأخلاق الأمين المـأمون تكونـوا مـن الفـائزين. قـال رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إن أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا الموطؤون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون. وإن أبغضكم وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون الملتمسون للبراء العنت». صدق رسول الله.

==========

(١) الظئر: المرضع، وسمي زوجها أيضًا ظئرًا وهو المراد هنا.

قاضٍ من قضاة منطقة «أيته» بولاية أترابراديش يزور الجامعة

بقلم: **التحرير**

يـــوم الاثنـــين ١٦/٢/٢٠٢٥م في الـــساعة الواحـدة ظهـرًا زار الجامعـة الإسـلامية دارالعلـوم/ ديوبنـد الـسيد كـمال الـدين - قـاضي منطقـة إضـافي (A.D.J)- واجتمع في دار الضيافة الجامعية بكل من رئـيس الجامعـة فـضيلة الـشيخ المفتـي أبـو القاسـم الـنعماني و نائـب رئـيس الجامعـة فـضيلة الـشيخ عبـدالخالق المـدراسي حفظهـما الله تعـالى. وانعقـد مجلس بالـضيف الـذي تعرف خلالـه عـلى نـشاطات الجامعـة ومناهجهـا التعليميـة ومعطياتهـا عـبر قـرن ونـصف مـن الزمـان. ثـم تجـول الـضيف في رحـاب الجامعـة ومختلـف مرافقهـا خاصـةً المكتبـة القديمـة وجـامع رشـيد والمجمـع الكبـير الـذي يـضم المكتبـة المركزيـة قيـد اللمســة الأخـــيرة ودارالحـديث. وسر كثـيرًا بـما رأى وشـاهد وأعـرب عـن فرحتـه البالغة بذلك.

وسجل الضيف من انطباعاته ما يلي:

«أحمـد الله تعـالى عـلى أن وفقنـي لزيـارة دارالعلـوم /ديوبنـد في ١٦/فبرايـر عـام ٢٠٢٥م، فوجـدتها عـن كثـب أعظـم ممـا سـمعته عـن بعـد بدرجاتٍ كثيرةٍ. وسررت جدًّا بهذه الزيارة. وكنت قـرأت في نـشيدها «لقـد تنـور العمـل الـصافي مـن الأشراف هنـا بـما كـان عليـه مؤسـسها الـسيد عابـد، وهل رأت العيون «تاج محل» من الإخلاص مثلها؟ وحقًـا لم يوجـد «تـاج محـل» مثلهـا يـورث القلـوب الروحانية». فشكرًا لكم.

كمال الدين

قاضي منطقة إضافي (A.D.J)

١٦/٢/٢٠٢٥م

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

وإلى مثله يشير الشاعر الجاهلي:

إِذا نز السَّحابُ بِأَرْضِ قَوْمٍ

رَعْيناه وإِنْ كانُوا غِضابَا

وقديمًا قالوا: تطول مدة الملك إذا كان فيه أربع خصال: إحداها: أنه لا يرضى لرعيته إلا ما يرضاه لنفسه. وأما اليوم فتجد الملك يحب ويرضى لنفسه ما لايرضى لرعيته، تجده يتقلب في أحضان النعيم ويرضى لرعيته البؤس والمتربة والفقر المدقع حتى تظل خاضعة أعناقها له، و تتكفف إليه. والثانية: أن لايسوف عملاً يخاف عاقبته، والثالثة: أن يجعل ولي عهده من ترضاه وتختاره رعاياه، لامن تهواه نفسه. وأما ملك اليوم فيختار لولاية عهده من ترضاه نفسه، لا من تختاره رعيته. والرابعة: أن يفحص عن أسرار الرعية، فحص المرضع عن منام رضيعها. وأما ملك اليوم فيتتبع أحوال الرعية ويفحص عن أسرارها خوفًا على ملكه وإبقاءً على سلطته وجبروته.

والحديث يجر الحديث فحيث جرى ذكر الملوك فإنه يدعو إلى التعرض لمثل عربي آخر و هو «كلام الملوك ملوك الكلام»، والمعنى أن كلام الملوك هيهات أن يبعد عن أدب الخطاب. وأما ملوكنا اليوم فعجب أعجب من العجب، سواء كانوا ملوك الحكم أو ملوك السياسية أو ملوك الصحافة أو ملوك وسائل الإعلام المرئية والسمعية أو ملوك مواقع التواصل الاجتماعي، فهم أرذل الملوك كلامًا وأبترهم حديثًا، وأبعدهم عن أدب الخطاب و الحديث.

و كان الذي يتبوأ عرش الملك في قديم الزمان يأخذ نفسَه بألف حذر في انتقاء الكلام الحسن الرصين فكان كلامه من ملوك الكلام. وهؤلاء الملوك الجمهوريون في كثير من البلاد المسلمة تجدهم يتحدثون حتى حين يوجهون خطابهم إلى شعب البلاد، فيتكلفون استخدام اللغة الأجنبية أحسنوها أم لم يحسنوها، فما بالك لو كان المخاطَب أجنبيًّا، فإنهم يلوون ألسنتهم بالألفاظ الأجنبية، ويلوكون كلماتها في أفواههم، كأن اللغة الوطنية والعربية قد شاخت وهرمت، ولم تعد قادرةً على أداء وظيفتها، ولا قائمةً على قدميها لجيل أحبطته وخربته سرعة

الاكتشافات و الاختراعات.

ولقد صدق شاعر النيل- حافظ إبراهيم- إذ قال:

رَجَعتُ لِنَفسي فَاتَّهَمتُ حَصاتي
وَنادَيتُ قَومي فَاحتَسَبتُ حَياتي
رَمَوني بِعُقمٍ في الشَبابِ وَلَيتَني
عَقِمتُ فَلَم أَجزَع لِقَولِ عُداتي
وَلَدتُ وَلَمّا لَم أَجِد لِعَرائِسي
رِجالاً وَأَكفاءً وَأَدتُ بَناتي
وَسِعتُ كِتابَ اللهِ لَفظاً وَغايَةً
وَما ضِقتُ عَن آيٍ بِهِ وَعِظاتِ
فَكَيفَ أَضيقُ اليَومَ عَن وَصفِ آلَةٍ
وَتَنسيقِ أَسماءٍ لِمُختَـــرَعاتِ
أَنا البَحرُ في أَحشائِهِ الدُرُّ كامِنٌ
فَهَل سَأَلوا الغَوّاصَ عَن صَدَفاتي
فَيا وَيحَكُم أَبلى وَتَبلى مَحاسِني
وَمِنكُم وَإِن عَزَّ الدَواءُ أَساتي
فَلا تَكِلوني لِلـزَمانِ فَإِنَّـني
أَخافُ عَلَيكُم أَن تَحينَ وَفاتي
أَرى لِرِجالِ الغَربِ عِزًّا وَمَنعَةً
وَكَم عَـزَّ أَقوامٌ بِعِـزِّ لُغاتِ
أَتَوا أَهلَهُم بِالمُعجِزاتِ تَفَنُّنًا
فَيا لَيتَكُم تَأتــونَ بِالكَلِماتِ

وهـؤلاء ملـوك الـصحافة والإعـلام بـشتى صـوره وأنواعـه أصبحوا أشبه بالجمل الـشارد و الفـرس الجـامح الـذي يـأبى أن يخـضع لأحـد، فتراهم يفعلون ما يحلو لهم، فإن أرادوا تكذيب الـصادق المجـرب صـدقه في الحيـاة كلهـا شـوهوا سمعته، وميعوا كرامته، ونكلوا به، وقدموا آلاف الأدلة - في زعمهم- وأثاروا مئات الشبهات في صدقه وعدله في أكناف العالم في عشية و ضحاها، دون أن يـردعهم ضـمير أو قـانون مـن قـوانين الإعــلام أو أدب مــن آدابــه، إن كــان لوســائل الإعلام اليوم آداب وأخلاق مهنية.

ومـا قـصة الملابـس الوطنيـة في كثـير مـن البلاد العربية والإسلامية ببعيد، فقد استبدل الملـوك الجمهوريـون بهـا ملابـس مستوردةً مـن الخـارج، مـن بـلاد الكفـر والظلـم والطغيـان، والعداء السافر لحضارة العرب والإسلام على طـول الخـط وعرضـه. فهـذا الـزعيم الـوطني العربي المسلم لاتكاد تميزه من الزعيم الأجنبي في مظهر وملبسه وهندامه.

الناس على دين ملوكهم

من الأمثال السائرة قول العرب: «الناس أتباعُ من غلب، والناس على دين ملوكهم»، وغفر الله لأبي العتاهية حيث يقول:

ما الناسُ إلاَّ مَعَ الدُنيا وَصاحِبِها ... فَكَيفَ ما اِنقَلَبَت يَومًا بِهِ اِنقَلَبوا

يُعَظِّمونَ أَخا الـدُنيا وَإِن وَثَبَت ... يَـومًا عَلَيـهِ بِما لا يَشتَهي وَثَبـوا

وذهبت الملوك اليوم وولى عهدهم إلا من شذ وندر، وهم اليوم أقرب إلى العبيد منهم إلى الملوك بالأمس، وأما الملوكية فلاتزال قائمةً بقوة أعنف وفي ازدهار و رقي وتطور بصور و وجوه لايأتي عليها العد والحصر، فلاتجد أحدًا في منصب أو وظيفة إلا وهو ملك فيما هو فيه وعليه؛ بل إنه مَلَكي أكثر من المَلِك، فإن العصر الذي نعيشه عصرُ الحكم الجمهوري، وإن كان الجمهور والشعب في كل بلد مكبوتًا مجزأً، متخلفًا قد ديست حقوقه، وانتهكت حرماته، وسلبت أمواله ، و هدمت ضياعه، ولاتلفي أحدًا من الملوك الجمهوريين إلا وهو يتطلع - تطلعَ العاطش إلى الماء - إلى أن تخضع له رقاب الجمهور؛ بل رقاب غيره من الملوك، فيعز من يشاء ويذل من يشاء، و لعل الشاعر الشرقي الأردي الثائر محمد إقبال يعبر تعبيرًا صادقًا عن هذا المعنى حين يقول:

«سواء كان مجلس الأمة أو مجلس المِلك، وإنما المَلِك من علِقَتْ عيناه بزرع غيره».

فالملك هو الذي يلتهم ما ناله الفلاح بكد يمينه وعرق جبينه، سواء كان ذلك الملك برويز الظالم الجبار أو المؤسسة الجمهورية المسماة بمجلس الأمة، وسواء كان من بني جلدتك أو من غيرك، فكلهم سواء كأسنان المشط، طبق النعل بالنعل.

(البقية على ص٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري